ثمرات الحياة

تأليف

السير جون لبوك

العضو بالجمعية الملوكية بلوندره وبالبرلمان البريطاني
ومجلس المملكة ورئيس المجلس العمومي ومجلس التجارة بلوندره

ترجمه الى اللغة العربية

حسن رضا باشا

ناظر المعارف العمومية

« وأحد طلاّب الحقوق »

الطبعة الاولى — حقوق الطبع محفوظة للمترجم

« ١٣١٧ هـ » مطبعة الترقي بشارع عبد العزيز بمصر « ١٩٠٠ م »

بسم الله الرحمن الرحيم

« وبه نثق والمصطفى وسيلتى »

وبعد فقد وقفتنى يد البحث الى كتاب فى طرق المعيشة ألفه باللغة الانجليزية جناب السير جون ليبوك [1] وترجمه الى اللغة الفرنساوية جناب المسيو أميل هو ڤلاك [2] من علماء كلية باريس ولما حواه هذا المؤلف من جم الفوائد قد نال من فائق الشهرة وعامّ الاستحسان ما جعله هو وترجمته الفرنساوية اكثر الكتب تداولا بين ايدى ابناء التاميز والسين فلا تكاد ترى خزانة كتب أحدهم تخلو منه بل اتخذوه السمير المفيد فى اوقات الفضاء والمرجع الحكيم فى السراء والضراء وانى لا اريد ان اشحن هذه الورقات بذكر ما هطلت به السنة الكتاب فى الجرائد والمنتديات تقريظا لهذا الكتاب وترجمته اكتفاء بما يشعر به كل مطلع على ما فيه كما وانى ما رغبت فى تعريبه ونشره لكونه كتابا معدوم النظير فى

(1) The Use of Life by the right Hon. Sir John Lubbock, Bart., M. P., F.R.S., D.C.L., LL.D.

(2) Mr. Emile Hovelaque, agrégé de l'Université.

اللغة العربية انما لكونه كتابا عصريا وان ما أترجمه هو فكر أمة حية بلغت من الترقى والتقدم أسمى مكان . وقد كتبت لجناب المؤلف بما يأتى :

القاهرة فى ٢٩ يوليه سنة ١٨٩٩

سيدى العزيز

لقد أسعدنى الحظ بتوفيقى الى كتابكم الثمين « ثمرة الحياة » المترجم الى اللغة الفرنساوية فطالعته بدقة ووجدته عظيم الفائدة مفعما بصائب الافكار فكتبت هذا لجنابكم راجيا التصريح لى بتعريبه ليعم نفعه سكان هذه البلاد فهل تسمحون لى بذلك لاشكركم بالنيابة عن وطنى ومواطنى ؟

وعليه فانى منتظر الافادة وارجوكم قبول فائق احترامى المخلص لكم

حسن رياض

بنظارة المعارف العمومية

فأجاب جنابه بما يأتى :

تحريرا بميدان سان جمس نمرة ٢ فى ٩ اغسطس سنة ١٨٩٩

سيدى العزيز

انه ليسرنى كثيرا ان أرى كتابى الصغير الذى ارسل لكم نسخة من آخر طبعة منه مترجما الى اللغة العربية . وانى ارجوكم افادتى عما اذا كنتم قد عزمتم نهائيا على الشروع فى العمل . وفى هذه الحالة ترسلون الىّ ست نسخ عند تمام الطبع .

وانى لشاكركم على ما قلتموه عنه مع الوثوق بانى

المخلص لكم

جون ليبوك

ثم عرفت جنابه عن طلبه ووردت اليَّ تلك النسخة ووجدت مضافا فيها فصلا في الوطنية وملحقا اقتصاديا في النهاية فعربت الأول واهملت الأخير لامتزاجه بالسياسة التي لا علاقة لها بغرضنا من هذا الكتاب كما واني اهملت من مبحث الدين ماوجدت ان فائدته ليست بعامة

ومن يطلع منا على محتويات هذا الكتاب ويقيس عليها ما عنده يرى مقدار ما ينقصه من دلائل حياة الامم انما يجدر بي ان أبين هنا نقصين عظيمين منتشرين بيننا وهما الجهل الذي خيم على عقولنا وأوجب احتقارنا والاستهانة بحقوقنا. والتبذير الذي حل رابطتنا القومية وأبعدنا عن الاتحاد الذي ننشده . ودواءهما التعلم والاقتصاد. وارجو ان تقدر هاتان الكلمتان (التعلم والاقتصاد) حق قدرهما وتحث العقول في أنهما عماد التقدم وعنوان الحياة وانهما أنجع دواء لدائنا الدفين. وما افردت الاقتصاد عن العلم الا لعظيم اهميته وجليل فائدته الجديرة بالالتفات

أروني امة بلغت مناهـا * بغير العلم او حدّ اليمانى

لقد أصاب ذلك الشاعر العربي ولكننا لسنا بأمة حربية لنركب مطية الأسنة فليس لنا غير القلم وهو أقوى من السيف في نوال المقاصد كما انه سهل الطريق مضمون المآل لا ينقصنا فيه الا توجيه انظار ثراتنا الى أن الامة جاهلة كثيرة الاحتياج الى التعلم وان عنوان الأمة اغنياؤها وانهم مسؤلون عنها امام الله والناس وان الحكومة مهما بذلت جهدها في توسيع نطاق مدارسها لا قدرة لها على تغذية كل العقول بلبان معارفها وان التعلم ليس بضروري ان يكون لتخريج فقهاء علماء بارعين في الطب

والهندسة والمحاماة او موظفي حكومة فيستصعبون الطريق بل لازالة ظلمة الغباوة المنتشرة وتعميم تعلم القراءة والكتابة الذي فضحنا فيه التعداد الأخير بين الامم مع تعلم قواعد الدين وفضائله وضرورة نشوكل صبي عليها ثم مبادئ العد وتقويم البلدان مع تعلم الزراعة والصنائع التي اهملها المصري ادعاء منه بحقارتها وجهلا بأهميتها

ولا أكون كاذبا اذا وعدت محبي الخير العارفين معنى الحياة الذين يعملون على ما بسطت بان الأمة بأسرها ترقى بذلك من حضيض الى عال فتحسن الاخلاق ويقل المزورون وينقص عدد المجرمين وتتولد الثقة بالنفس في الأعمال فتزداد الراحة العامة بما لا قدرة للدرهم على انالته لنا

وانا معاشر الشرقيين لا نعرف من معنى الاعتدال وجها فلا فكرة للغني الا في استزادة ثروته وتوسيع نطاق دائرته حتى انه ربما يسلك طريق الشح الممقوت او يطمع في فقير فيميت عائلة باسرها بسبب دريهمات لا تغنيه شيئا مع ان الواجب عليه نفع بني جلدته وتخصيص بعض ما من الله عليه به لبذله في سبيل انهاض حال مواطنيه فيتمتع بلذة ارتباط الجامعة القومية التي تفوق كل المسرات! يسير الغني فان صادف مصريا هوى به الجهل الى حضيض النقائص كل ما عنده انه يسب الزمان والمكان ويعدد المصائب التي جرتها سوء التربية المصرية ولم يدر ان شفاء غلته في يديه وان عنده الدواء لا يمنعه عن الانتفاع به غير الطمع الدنيوي او اتباع هوى النفس .

ان في الغرب لعبرة : يغتني منهم الرجل ليشاطر بني جلدته البائسين في رقي حالهم وحمايتهم من الجهل مع ان فرق الاحتياج لذلك بيننا وبينهم عظيم

فاذا قربت من أجدهم الوفاة تذكر ذلك الواجب وهو على فراش الموت فينص عنه بفضل فى وصيته . وعندنا الغنى يقضى حياته تعبا فى جمع المال وطلب الاستزادة وربما بخل بعضهم على نفسه فأذلها او على اولاده فلم يربهم التربية اللائقة فينتظرون موته ليجروا بسىء تصرفهم فيما يتركه اللعنة عليه والأذى على الآخرين

والمرء ظل زائل والعاقل من عمل على أن تكون الحياة للاسم وخير وسيلة لذلك خدمة الوطن والانسانية .

نعم ان فينا من نبهاء الاغنياء من يذكرهم اللسان مرطبا بآى الاحترام والشكر ولكنهم مع ندرتهم لم تتم فيهم شروط الاغنياء ! فهل استنهض احدهم همم الآخرين الى السعى فى لمّ شعث الأمة وترقية حالتها العلمية والأدبية ؟ هل خرجت اقوالهم العظيمة الى أدنى حدود العمل ؟ هذا ما اتساءل عنه وارجو ان اكون مخطئا فى ظنى !

والمتوسط والفقير سيان ينفقان كل دخلها أول فأول بل ويحتاجان الى الصرف زيادة وجلهم واقع تحت نير الدّين المهين يشكون ضيق ذات اليد ولعمرى انه لهو عين الجنون. لا ترتيب لنا فى احوال المعيشة ولا فكرة منصرفة الى فائدة الاقتصاد ولا همة فى النفس ترقى الا معرفة كيان الوجود ولا عذر لاحدنا فى ذلك ما دمنا نرى ان أغلب ما نصرفه فيه الاسراف المفرط . نجنح الى الفسحة فينحط فكرنا الى انها لا توجد الا بين جدران منازل او عموميات محال لا فى غريب صنع الخالق فى الارض والسماء وما بينهما من فسيح الفضاء . نميل الى تحسين ملبسنا فينطق درهمنا نخرا مضاعفا فى أعظم محال تجارة الاجانب وننظر الى محال تجارة مواطننا المصرى فنتركها احتقارا

ولانشعر بأننا بذلك نميت انفسنا وندمر بلادنا حتى عودنا المصرى الكسل وعدم اتقان العمل ثم عدنا نرميه بعدم الثقة وخلف الوعد وغير ذلك من النقائص

ونقيم الافراح والمآتم وننتهزها فرصة لاظهار الفخفخة فيقتل المصرى منا نفسه حبا فى التظاهر وهو لعمر الحق أحق بما يصرفه فى مثل هذه الوجوه وهو غير مكلف بما يقترضه باطلا بل مستحق لدرهم يجده على الأقل اذا مرض أحد عنده فيصرفه فى معالجته ولا يتركه يموت ضحية وصفات الجهال. وانا كسالى لا حديث لنا الا الشكوى من كثرة الاشتغال وهذا عنوان على ضعف القلب ودليل على انحطاط العقل على اننا ما خلقنا الا للعمل كغيرنا والعاقل من يجد سروره فيه ولو فقهنا الى ما نعمله واستخلصنا منه فوائده الحقة لأرحنا قلوبنا من عنائها الوهمى

ومع هذا فاذا كنا قد يئسنا من انفسنا وقطع منا أمل الحياة وقبلنا ان نعيش فى الحضيض وتحملنا نغزات الضمير ولوم الاقلام والاحتقار من العالم المتمدن فلنتق الله فى اولادنا ونحسن تربيتهم ونجيد تأديبهم ! ولقد كثرت بيننا الشكوى من فساد الأولاد ولكنه هو خطؤنا الذى جعلنا كمن ينتظر ان تولد اولاده متأدبين علماء حتى لا يحملوا النفس عناء واجب التربية !

وكلنا يندهش عند رؤية ولد صغير من عائلة أوروبية فقيرة او متوسطة ويقارن حالته بحالة ولد من كبار عائلاتنا ويزيد اندهاشنا عند مناقشته وترقب احواله نظافة وصحة وعقلا ومعلومات أولية ثابتة فان كان هذا ناشئا عن كون أمه الأوروبية فى حرية تامة تحاديه اينما كان وتراقبه فى كل أموره داخل المنزل وخارجه فلا يسعنا الا موافقة من يقول بضرورة رفع الحجاب

ومساواة المرأة بالرجل فى كل أعماله

ولكن هذا الفرق ناشئ كما يعلم الجميع عن اقتدار الأم وحسن تربيتها ومعرفتها قوانين الصحة وقواعد التربية ومراقبتها له فى المنزل وقيام ابيه بمراقبته خارجا لا يتركه مع خادم يقتبس منه سئ الخلق وفساد التربية

ويرى المطلع فى مبحث التربية الأهلية من هذا الكتاب ان الألمانيين والانجليز يرجحون الآن ان تكون تربية البنات مؤسسة على ما فى المثلين الألمانيين الآتيين (يجب ان تكون خزانة كتب البنت دولابها) و(يجب ان تحفظ البنات بين الاربعة اناجيل او بين اربع حيطان) وهذا مما يدل على صحة تربية البنت التربية الدينية مع اقتصارها على معرفة الاشغال المنزلية

وعلى هذا فيجب ان يكون مربو الاطفال اكثر تدينا وأوسع علما. وأكمل فضيلة عارفين بالقوانين الصحية ووسائل التربية على الفضائل والكمالات لا مثل ما نراه فى غالب المكاتب الأهلية التى قام بانشائها بعض أولى الفضل مما يزيد فى أسفنا ويوقع ابناءنا فى شر مما نتحاشاه

وزيادة في الفائدة أذكر هنا من كتاب احياء العلوم للغزالى ملخص مبحث في تربية الابناء وتحسين اخلاقهم يصلح لان يكون لنا درسا عظيما:

ان الطريقة فى تعليم الصبيان من أهم الامور وأوكدها والصبى امانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل الى كل ما يمال به اليه فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد فى دنياه وآخرته وشاركه فى ثوابه ابواه وكل معلم له ومؤدب وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك وكان الوزر فى رقبة القيم

عليه والوالى له وصيانة الصبيان تكون بتأديبهم وتهذيبهم وتعليمهم محاسن الاخلاق وحفظهم من القرناء السوء وعدم تعودهم على التنعم وانه لا تحبب اليهم الزينة واسباب الرفاهية لئلا يضيعوا عمرهم فى طلبها اذا كبروا فيهلكون هلاك الأبد بل ينبغى مراقبتهم من أول امرهم فلا يستعمل فى حضانتهم وارضاعهم الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال لان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فاذا وقع عليه نشو الصبي انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث (١) وينبغى على الوالد دقة ملاحظة نظافة ولده وعليه متى رأى فيه مخايل التمييز ان يحسن مراقبته وأول مخايل التمييز ظهور الحياء الذى يدل على اعتدال الاخلاق وصفاء القلب وغير ذلك مما يبشر بكمال العقل عند البلوغ فلا يهمل وجود هذا الحياء عند الصبي بل يستعين به على تأديبه وأول ما يجب الاعتناء به هو ان لا يعود الصبي على الشره فى الاكل بل يؤدب فيه بمثل ان لا يأخذ الطعام الا بيمينه وان يقول عليه بسم الله وان لا يبادر اليه قبل غيره وان لا يحدق النظر فيه ويؤثر طعاماً ما على آخر ويعلمه القناعة باى طعام كان ويقبح اليه كثرة الاكل

(١) ذهب الكثير منا الى ارضاع اولاده من غير والدتهم فيستعملون المرضعات وهنّ بالطبع غير شريفات فالحرة تموت ولا تأكل بثديها فيخرج الولد كأنه ليس بولد ابيه خالياً عن شهامة والديه بل ربما تسرب ببغضهما والنفور منهما عدا مايشب عليه من وضيع التربية. وانى اعتقد صحة نصح من كانت زوجاتهم غير قادرات على الارضاع لضعف فى الصحه اولاسباب اخرى ان يستعملوا فى تغذية اولادهم ماترشد اليه الاطباء كلبن الماعز اوالبقر المخفف بالماء المحلى قليلا اوالدقيق المصنوع بالالبان فى الصيادل الخ لانها تعيض لبن الام ولاتكون سببا فى ان تدب فى عروق الصبى جرثومة الفساد وسوء الاخلاق

واذا أهمل الصبي فى أول نشوه خرج فى الأغاب ردئ الأخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذا فضول وضحك وكياد ومجانة وانما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ثم يشغل فى المكتب فيعلم الدين وفضائله اولا ثم احاديث الاخيار واحوالهم الى غير ذلك من العلوم المرغوبة انما يمنع عن الاشتغال بالاشعار التى فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من الذين يزعمون انهم ادبأ وان ذلك من الظرف ورقة الطبع. ومتى ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فيكرم عليه ويجازى بما يفرح به وان خالف ذلك فى بعض الاحيان مرة واحدة فيتغافل عنه ولا سيما اذا ستره الصبي واجتهد فى اخفائه لانه ان أظهر ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة وان عاد فيعاقب سرا ويعظم الأمر فيه ولا يكثر عليه العتاب فى كل حين فيهون عليه سماع الملامة ويسقط وقع الكلام من قلبه. وليكن الأب حافظا هيئة الكلام معه فلا يوبخه الا احيانا والأم تخوفه بالأب وتزجره عند اللزوم ويجب منعه من النوم نهارا فان ذلك يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا انما يمنع الفرش اللين حتى تتصلب أعضاؤه. وليعود الخشونة فى المفرش والمطعم والملبس وينبغى ان يمنع عن كل ما يفعله فى خفية فانه لا يخفيه الا ويعتقد انه قبيح ويعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل وتتقوى عضلاته ويمنع ان يفتخر على اقرانه بشئ مما يملكه والداه او من مطاعمه وملابسه بل يعود التواضع والاكرام لكل من عاشروه والتلطف معهم فى الكلام. ويمنع من ان يأخذ من الصبيان شيئا بدا له بل يعلم ان الرفعة فى الأعطاء لا فى الأخذ وان الأخذ دناءة وخسة

وبالجملة يقبح الى الصبيان حب الذهب والفضة ويحذرون منهما أكثر مما يحذر من الحية والعقارب فان آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الكبار أيضا. وينبغي ان يعلم آداب الجلوس ويعود الأمانة والصدق ويحرم عليه الكذب ويمنع من الحلف رأسا صدقا كان ام كذبا ويعلم آداب المكالمة وان يحتمل عقاب معلمه لانه أولى الناس بمحبة نفعه. وينبغي ان يؤذن للصبي باللعب لعبا جميلا بعد انتهاء الشغل ليستريح من عناء الدرس بحيث لا يتعب فيه لأن منع الصبي من اللعب وإرهاقه الى التعلم دائما كالشح عليه بالدرهم وبقضاء لوازمه مما يفسد اخلاقه ويميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسا وينبغي ان يعلم طاعة واحترام والديه ومن هم اكبر منه سنا ومتى بلغ سن التمييز لا يسامح فى ترك الدين وتعلم فضائله فان من لا يعتد بدينه ولا يحرص عليه لا يرجي منه خيرا. فاذا وقع نشوه كذلك وقارب البلوغ أمكنه ان يعرف أسرار هذه الامور فيذكر له ان الأطعمة أدوية وان المقصود منها ان يقوى الانسان على العمل وان حمي الدين وحب الملك والوطن ونفع الناس واجب فيستمر عليها فى أدوار تعلمه وطبقات حياته وهى كفيلة له بالنجاح والسعادة فى الدنيا والآخرة.

هذا وأرجو ان يكون من نشر هذا الكتاب تغيير فى افكارنا وتنظيم فى سير حياتنا أسأله تعالى تحقيق الأمل ونجاح العمل وهو حسبنا ونعم الوكيل

القاهرة فى ٤ جمادى الثانيه سنة ١٣١٧ هجرية

حسن رياض

ابن احمد حاذق

١

أهم ما يتساءل عنه

ان أهم ما فى الحياة هو معرفة طرق المعيشة . ومع كون الانسان لا يميل لشئ اكثر من ميله لحفظ حياته فانه لا يجهد النفس فى تقويمها . نعم أن النجاح فى تقويم الحياة ليس بالأمر السهل فقد قال إيبوقراط (١) فى رأس موجز حكمه الطبية « ان الحياة لقصيرة والعلم لانهاية له والفرصة سريعة الفوات والتجربة خداعة وبت الرأى من الصعوبة بمكان » ولكن السعادة والنجاح فى الحياة لا ترتبط بظروف الاحوال بل بانفسنا اذ كم جرت غلطات الانسان عليه من ضرر لم يأته به إيذاء الغير بل كم دمرت يده منازل ومدنا اكثر مما دمرته الزوابع والزلازل فان الدمار على نوعين نوع بيد الزمان ونوع بيد الانسان والثانى هو المحزن حقا فقد قال سنيك (٢) « ان أعدى عدو للانسان كامن فى قلبه » وقال لابرير (٣) « ان معظم الرجال

---

(١) ايبوقراط هو من أشهر حكماء الأقدمين ولد فى سنة ٤٦٠ ق . م . واشتهر بمحبته لوطنه لما دعاه ارتاكزرسيس الى معالجة الاعجام من الطاعون ورغبه فى جزيل المال فرفض قائلا ان الشرف يمنعه عن خدمة اعداء وطنه .

(٢) Sénèque فيلسوف لاتينى تولى منصبا فى حكومة نيرون واتهم بخيانته فأماته فى سنة ٦٥ ق . م .

(٣) La Bruyère كاتب فرنساوى شهير فى القرن السابع عشر وله كتاب فى الاخلاق ذو شهرة عظيمة

يستعملون نصف حياتهم لتكدير صفو النصف الآخر » كما قال ليلى [١]
« ان نزق الشباب يجعلنا فى الغالب نقدم على فعل امور نأسف عليها فى
الشيخوخة » لان ما مضى فات فلا قدرة لكلوتو [٢] على تجديد نسيج
لحمته ولا فى استطاعة أتروپوس [٣] استرجاعه والانسان كما قال ليسيان [٤]
« مولع بحب النفس غير مراع فى ذلك سبيل الحكمة ».

وقد اتهمت بانى ممن يستصوبون كل شئ وانا لا أنكر ذلك الا انى لم اتظاهر بأن اجهل او أنكر متاعب الحياة ومشاغلها ولم أثبت ابدا ان جميع الناس سعداء بل كل ما ادعيته أنه فى قدرتهم إسعاد انفسهم وان أهملوا الاسباب وفاتهم السعادة فلا ينسب النقص الا اليهم لأن اغلبهم يترك فرص إسعاد تمضى اكثر مما ينتهزه منها

ولربما كان قول وتيير [٥] الآتى أشد مما تقدم فقد قال : لا شئ أعظم تأثيرا فى كل ما كتب او نطق به من قول « كان هذا يمكن ان يكون ».

وقد نسمى ما جهلنا حقيقته او جاوزنا فى استعماله الحد ضررا وهو فى الحقيقة نفع مثل ذلك كما اذا وضعنا عجلة او أى جزء من آلة فى غير

(١) Lily راوية انجليزى شهير فى القرن السادس عشر

(٢) Clotho أصغر آلهات المنية وهى التى تنسج حياة الانسان

(٣) Atropos هى من الآلهات المذكورة التى تقطع ذلك النسيج

(٤) Lucien كاتب يونانى شهير فى القرن الحادى عشر مؤلف كتاب مواعظ عنوانه (حديث الأموات)

(٥) Whittier شاعر امريكى نبغ فى الأدبيات ولد فى سنة ١٨٠٧ واشتهر بمضادة الاتجار فى الرقيق وله مؤلفات مهمة

موضعه فانه ينشأ عن ذلك اتلف الآلة بأكملها كذلك لو كان سيرنا غير مطابق للزمان والمجتمع الانسانى فانا نجنى ولا شك عظيم الأسف فى المستقبل. والشجاعة متى جاوزت الحد صارت تهورا والمحبة ضعفا والاقتصاد بخلا. وفى الامثال المشهورة « ان ما يفيد بعض الناس قد يكون مضرا بالآخرين » ومع ذلك فانه ما أمكن الاثبات للآن أن أى تغيير فى القوانين الطبيعية يعد تحسينا فقد يقع الرجل وتكسر رجله مثلا ولكن هذا لا يستتبع أن تغييرا فى قوانين الموازنة يكون محسنا للحالة الحاضرة

وكانت تدعى الفرس ان السعادة تأتينا من أرميز مبدأ الخير والمصائب من أهرمان مبدا الشر ولكن أتعابنا هى فى الحقيقة نتائج عملنا الشخصى ومنشؤها أغلاطنا سواء كانت عن علم وإرادة أو عن جهل وليس هذا السبب الاخير بأقل حصولا من الاول .

اما ما كان من أغلاطنا ناشئ عن علم وارادة فان بقلوبنا قوة لا تخطئ فان فعلنا شرا انما يكون لان اعيننا تكون قد رأت الشر ولا نكون حينئذ قد اقترفنا اثما بل مجرد طيش اللهم الا اذا كنا قد أغمضنا الجفن كى لا نرى . وما كان من اغلاطنا ناشئ عن جهل فعلينا ان نرجع فيه الى قوة الادراك وهى قوة عقل والدينا واخوتنا الاكبر سنا واخدانا ثم الى التربية ثم الينا . فانا نربى انفسنا بعض التربية وكل له من نفسه تلميذ على الاقل يلقنه العلم والأدب وما نتعلمه من انفسنا يكون اقوى ارتباطا بحقيقتنا مما نتعلمه من الغير . ولا تتم تربيتنا باتمامنا دروسنا بل توشك ان تبتدئ عنده وتستمر مدى الحياة وقد قال سنيك « ما أفيد كون الانسان يشغل

عقله بقدر ما يشغل جسمه ويحمل نفسه مشاق لاكتساب الفضيلة كما يفعل للحصول على اللذات»

ومن الناس الجبرى الذى يرى ان كل شئ فى الدنيا مقرر من قبل وان كل ما وجب حصوله لابد أن يكون سواء بالرضا او عدمه ويعتبرون ان ليس الانسان الا كتمثال او لعبة فى يد قوة عالية. وما يهم البحث فيه حينئذ هو معرفة ما اذا كان يوجد علم هو علم الحياة او أنه فى امكاننا توجيه سيرنا فى لجج محيط الزمن او نحن مجبورون على اتباع تياره؟ والجواب بديهى فالانسان كما قال تنيسون (١) «مالك كل احواله» وأن لم يكن كذلك فأليه على الاقل ينسب الخطأ ومن تريد ان تكون تكنه فانه متى وافقت قوة ارادتك ارادة الخالق جل وعلا تصير كما تحب ما دمت قد عزمت على ذلك بقوة وثبات. وحيث انه فى امكاننا التصرف فيما هو مقسوم لنا فمن المهم جدا الوقوف على ما نريد ان نكون وكيف يكون التمتع اكثر ما يمكن بالحياة التى هى اعظم ميراث لنا؛

فمن الناس من لهم غاية فى هذه الحياة ومنهم من ليست له تلك الغاية وما يجب ان يكون لنا أول غاية هو استخلاص أعظم وأسمى فائدة من انفسنا فقد قال همبولد (٢) « ان أول ما يجب على كل انسان هو تقوية مزاياه تكملة تامة مستحسنة ليرقى بذلك الى أعظم وأقوى مظهر لتمام حقيقته »

---

(١) Tennyson. *Enid*. شاعر انكليزي فى القرن التاسع عشر

(٢) Humboldt عالم ومؤرخ طبيعى شهير من بروسيا ومن رجال حكومتها فى القرن الثامن عشر وله الكتاب الشهير الذى عنوانه بهجة الدنيا (Cosmos)

وقال چون پول ريشتر (١) «هو ان يستخلص من نفسه كل ما احتوته مادته الاصلية» ومع هذا فانه لا يصح ان نعمل بذلك لقصد فائدة شخصية والا كان عدم النجاح محققا فقد بين بيكون (٢) « ان النجاح الشخصي لا يعتبر كفاية للحياة تذكر لانه لا يتصور ان مثل پلاتون وأرستوت وهما من أعاظم قدماء اليونان كانا ممن يعملون للحصول على الكمال الخاص بانفسهم.

واني اعتقد في حكم المقرر ان اشتغالنا بكمالنا الشخصي يكون ايضاً في فائدة الغير وأود ان أظهر مقدار هذه الفائدة

والموعظة العامية اليونانية (٣) « إعرف ما في نفسك » تظهر لنا أهمية معرفة الانسان لنفسه وصعوبة ذلك عليه وقال مونتيني (٤) بعبارته السلسة « لم أجد في العالم طرا مخيفا ولا معجزا أكثر اختصاصا بي من نفسي »

وبذل النصح لم يكن للآن بالشيء المفيد واني لا أنسى التجربة المحزنة التي قام بها احد المتدينين في زيلاندا الجديدة فان رئيس قبيلة بها قال عنه لأحد المبشرين انه لكثرة نصائحه اضطررنا ان نأكله لنسكته ومع ذلك فانه كما قال ليلي (٥) « من لا يريد قبول النصيحة التي لا تكلفه شيئاً فانه

(١) Jean-Paul Richter من مشاهير كتاب وفلاسفة الألمانيين في القرن الثامن عشر

(٢) Bacon متشرع وفيلسوف انجليزي في القرن السادس عشر

(٣) γνῶθι σεαυτόν (اغنوثي سيفاستون)

(٤) Montaigne من مشاهير كتاب الفرنسيس في القرن السادس عشر وهو صاحب كتاب التجارب (Les Essais)

(٥) Lily نحوي انجليزي شهير وله عدة سياحات في بلاد الشرق وأسس مدرسة للغات القديمة بانكلترا وله جملة مؤلفات (سنة ١٤٦٨ — ١٥٢٢)

يشترى الأسف فى المستقبل غاليا ».وغرضى هنا ان أبين بعض النصائح النافعةلمن يريدون ان يكونوا على شئ او يعملوا عملا فى الحياة او يستخلصوا من انفسهم ومن حياتهم اعظم ما يستطاع من الفائدة :

لا شئ يحزن اكثر من رؤية الانسان يضيع الفرص التى أتيحت له فلكم من سعادة كنا نهيئها للغير اذا جعلناه ينتفع بالاموال التى نضيعها عبثا او التى لم نعرف ان ننتفع بها .

ولنبحث فيما اذا كانت مسراتنا حقيقية او وهمية :

إنا نوافق على عمل كثير امور قيل لنا عنها انها من المسرات وكنا نجتنبها اذا كان أعطى لها غير هذا الاسم ويرى الكثير انه يلهو لكونه لم ير فائدة فيما يعمله وآخرون يظنون ان السرور المحسوس هو الموجود وحده مع ان سرور العقل هو فى الحقيقة الافضل والاكثر استمرارا فى آن واحد

وانا نهمل جسمنا ونقوضه بدون ما التفات وليس لنا جسم غيره وصحة العقل مرتبطة بصحة الجسم .

وانا لا نعرف ان نتمتع بنصف السرور الذى نجده فى الفنون الجميلة ولا نهتم بمعرفة منفعة العلوم ولا نلتفت الى مزايا التمتع بعجائب الكائنات فى الارض والسماء والقليل يجد سرورا فى الموسيقى ولكنه نزر يسير .

ومنا من يفتكر بعجب انه وحده حائز العقل على ان هذا العقل الذى نتباهى به لانعرف كيف نستعمله فى إنماء سعادتنا ونوال راحتنا ولنذكرهم بما قالته بسطاء الفلاسفة « لا ينبغى ان يكون العقل بعد كل اعتبار ميراثا مضرا أو منبعا للآلام ».

ولا تعرف العجماوات مواقع انشغالنا فالرجل يسير فى ظل زائل يقتل نفسه بالظنون والمخاوف وعقاب الضمير وتحيط به الأوهام الخارجة عن حد التصور من كل جانب ومقاومتها لاتجدى نفعا . والانشغال ولو انه محض عبث الا ان عدم الاكتراث خطر فمن الضرورى ان نشغل انفسنا من الآن بما نحسن معرفته ما دام الخطأ يحادينا من كل صوب . ولكنه بالرغم عن كل معايب هذه الدنيا فان الخالق الرحيم لم يرد ان نكون اشقياء من اول وهلة بل ويلزمنا لتمام إضلال انفسنا طويل زمن وكثير اتعاب حيث لا يتصور ان نقع من أعالى شريف الخصال مرة واحدة كما وقع فيلكان (١) من السماء فى يوم واحد . اما اذا تركنا الاشخاص وبحثنا فى النوع فاننا ندهش جدا من مقدار إهمالنا الفوائد . وانه لحرى بالعموم ان يقول كما قال نيوتون (٢) « إنا كاطفال صغار يلعبون على شاطئ البحار ويجمعون من وقت لآخر قوقعات مضيئة او ينظرون حشيشة غريبة وأمامهم محيط الحقائق الفسيح لا يزال مجهولا » فما من مادة واحدة نعرف كنه حقيقتها وتمام خاصيتها . ونشتغل من الصباح للمساء ولو كنا عرفنا على الأقل خواص المادة او استعمال جميع القوى الطبيعية لكان من الجائز ان تكفى ساعة او اثنتان كل يوم للقيام بجميع احتياجاتنا الضرورية ويبقى

(١) Vulcain اسم لابن المشترى من آلهة القدماء ولد مشوها فألقته أمه من أعلى أولاميا الى جزيرة لمنوس فكسرت رجله واستوطن بجوار بركان اتنا ثم اشتغل فى الحدادة وهو اله النار

(٢) Newton من اعاظم علماء الانجليز وهو الذى اكتشف قوانين الجذب العامة (١٦٤٢ — ١٧٢٧)

لنا كل الزمن الكافى لتوسيع معقولنا وإيفاء ما يخالج قلوبنا . فقد اخترع البخار وما انتفعنا بكل فوائده وكان استعمال الكهرباء من منذ خمسين سنة مجهولا وما انتفاعنا منه اليوم الا قليلا وقوة تيارات الأنهر قوة معدومة عندنا . ولكم من آلام كانت لا تصيب الانسان اذا اكتشفت الاجزاء المخدرة قبل الآن . ولا يكفى مجلد لشرح ما يؤيد قولنا انما لا يختلف اثنان فى ان آلاف من الاكتشافات على وشك الظهور

أليس من المدهش ايضا ان نرى الأمم النصرانية تصرف القناطير المقنطرة فى جلب دمار يعمها وتتضارب كالحيوانات المفترسة لنوال جزء من مستعمرة وأمامها محيط الحقائق ممتد غير مكتشف !

وقد كان مسلما من منذ قرن ان نرى نصف الاطفال ينشأ ويشب غير متعلم القراءة والكتابة ولكنا نرى اليوم كثيراً يذمون التوسع فى التعليم ويستكثرون مايصرف فى شؤونه ولم يروا ان الجهل يستنفد اكثر مما يصرف فى سبيل العلم

وتلتقط اولادنا الآن وشائظ التربية . ولكل الحق فى ان يتساءل هل الطرق التى نتبعها فى تربيتهم هى الجيدة ؟ وانى لا أريد شرح هذا الموضوع هنا ولكى اكتفى بتنبيه الافكار الى اننا قد اهملنا التربية الادبية فى مدارسنا !

وخلاصة ما تقدم اننا اذا لم نحترم وصايا الخالق نعمل بلا شك ضررا عظيما وتكون كل اعمالنا مجلبة لأذى الغير واذا عملنا بها تكون مجلبة السعادة الحقيقة فى هذه الحياة . وعلى ذلك فحب النفس والتطرف فى الامور

والكسل والنقائص الأخرى المقوتة لذاتها تكون احياناً بالنسبة الينا مصدراً للمسرات ولا تضر الا بالغير ولا يبحث عن اللذات الا كل من لا همّ لهم الا انفسهم الذين يقولون عن الفضيلة والطيبة (وهي صفات شريفة عالية في ذاتها) انها توجب اجتناب الملاهي حتى الطاهرة وتؤدي بنا الى زهد مستديم . لأن عكس ما تقدم هو الصواب فالنقيصة لا تكاد تخلو من ضغط وقوانين حتى ان الشقي هو الذي يسقط في مهين الاسترقاق وهو استرقاق الشهوات . وكثير من الشبان يظنون ان في النقيصة شيئا من الشهامة على ان الاكثر حمقا وضعفا قادر ان يكون من ذوي النقائص انما الفضيلة هي الشهامة الحقة وفيها الحرية الحقيقة وفي النقيصة حقيق الاسترقاق

ولا يحط طريق المعيشة بقدر الانسان اذا كان غير لائق به وانما يكون غير لائق به اذا كان مخلا بالآداب . ولئن نشأ عن انقلاب غير منتظر أن كان الشر خيرا فالسعادة والراحة لا يكون لهما أثر في الوجود

ولا أريد ذكر رأي علماء الدين تعزيزاً لما أقوله من ان الشر والآلام لا يفترقان ولكني أستحسن الاستعانة بشهادة خبير هو اللورد شيسترفيلد (١) فانه ختم احدى رسائل نصائحه لولده بقوله « هذه هي المكافأة التي لا بدّ من ان تهبها الفضيلة وهذه هي الاخلاق التي يجب ان تعتاد عليها ان اردت ان تكون رجلا صالحا عالي الهمة لأن السعادة لا تنال إلا بهذا الثمن »

(١) Lord Chesterfield من رجال حكومة انكلترا ومن مشاهير كتابها (سنة ١٦٩٤ — ١٧٧٣) وله كتاب في رسائله لولده اشتهر بالبلاغة ودقيق المعنى

وقد حصر ديكارت (١) طرق الحياة فى اربع قواعد فقال :

(١) طاعتى لقوانين وعوائد البلاد والتمسك بالدين الذى منّ الله علىّ بان انشأ فيه

(٢) ان اكون فى اعمالى كثير الحزم والثبات

(٣) ان اجتهد في إخضاع نفسى قبل ان اتغلب على الثروة

(٤) ان استعمل كامل حياتى فى التقدم بقدر امكانى وفى معرفة الحقيقة

والمحبون لانفسهم او عديمو التمييز والأشقياء ليسوا وحدهم الذين يجلبون المصائب لانفسهم ولغيرهم بل يجب ان نعرف ان رجالا ذوى همم بل وكتبا نفيسة مفعمة بحسن المقاصد يقعون فى نفس الخطاء بعدم تمييزهم بين المسرات وبين ما يخل بالآداب ولكونهم وصفوا الفضيلة بالزهد المستديم واعتبروا ان التقشف هو الدين. وأعظم مثال لذلك من يلزم الآخرين باعتناق دين فكثير من أهل هذا المذهب كانوا من أعاظم الرجال ولكنهم أخطأوا كل الخطاء فى معرفة حقيقة النصرانية. وقد نرى كثيراً من كبار الرجال يعتقد ان كل ما يسر معصية وأن حقيقة الدين كلها تقشف وأحزان وأماتة للنفس وان الكون المضئ المنتشرة فيه الشمس والبهجة ضرر لا هبة وتحريض من الشيطان لا منبع عظيم من ينابيع السرور

(١) Descartes فيلسوف فى الطبيعة وهندسى من مشاهير فرنسا كثير الاكتشافات العلمية وهو مؤسس علم النفس الحديث وصاحب المبدأ المشهور (اذا اردت الوصول للحقيقة فى الحياة يلزمك مناقضة افكار من سبق) وله مؤلفات شتى ومات فى استكهولم حيث كانت طلبته الملكة كرستيانيا (١٥٩٦ — ١٦٥٠)

التي من علينا بها رب الخيرات فقال كوبر (١) « ان طريق الألم هو الذي يوصل وحده الى الدار التي لا ألم بها » نعم انه لا يمكننا اجتياز طريق الحياة بدون معرفة الاتعاب فان كل ضوء يرمى ظلالا وبصرف النظر عن الاحزان التي لا يمكننا دفعها والتي أوجبتها علينا حدود الحياة الضيقة كفقد من نحب مثلا فان حياتنا مرتبكة والناس لا تجربة عندهم وبسبب جهلنا حقيقتنا وعدم معرفة اصل المادة وخواصها ولا القوة التي تحيط بنا فقد صرنا معرضين لان نشعر بكثير الآلام ومتاعب . انما ما أوضحه كوبر من ان طريق الألم يوصل وحده للجنة وان الحياة السعيدة فى الارض تلاقى الآلام فى الآخرة هو محض خطاء آذى النفوس الرهيفة بما أزعجها به وبما ملأها من الشك وعدم الاطمئنان فكم من شاب بهج يعرف توبيخ الضمير ذم السعادة التي يجب عليه ان يشكرها . وكوبر بعيد عن تحقيق فكرته وهو كما قال ماكولى (٢) « من الذين يحرمون سباق الثيران ومناظرة الديكة لا لسبب تألم الحيوانات انما لكونها تسر الناظرين »

وكثير منا يتأوه ويتضجر لعدم فهمه حقيقة الوجود نعم ان الرجل الصالح ربما يتألم من تركيب الدنيا التي تحزنه غالبا ولكن تأكد ان ليس يشكو منها رجل عمل واجبه لانه كما قال سنيك « ليس من واجب يتم يقصر عن إسعادنا ولا من غواية ليس لها من علاج » وقال ميلتون (٢)

(١) Macaulay مؤرخ ورجل سياسي انجليزى شهير عطر ذكر فضائله تاريخ انجلترا وله كثير مؤلفات تاريخية (١٨٠٠ — ١٨٥٩)

(٢) Milton شاعر انجليزى شهير كان كاتب سر كرمويل وبعد موته عاش معتكفا

« لا تتهم الطبيعة فانها قامت لك بواجبها وما عليك الا القيام بواجبك » ولم يخلق الله فى الكون الا سرورا لاعيننا ونغمات لآذاننا ويكاد يستحيل علينا تقدير الراحة التى يسببها الانسان للغير او السرور الذى يستخلصه لنفسه اذا سلك فى حياته طريقا صالحا . فاذا كان هذا القرن هو حقيقة كما نظن احسن القرون واكثرها علما يلزمنا شكر حسن حظنا بدون ان ننسب لانفسنا فخارا بل نهنئها به بسرور خالص عن الكبر والاعجاب . وعليه فيلزمنا التمتع تماما وبكل شكر بمحاسن الحياة كما ويجب الاستعداد لملاقاة الاحزان والمتاعب فقد قال والبول (١) « ان الحياة كرواية مضحكة لمن يتأمل وكرواية محزنة لمن عنده شعور واحساس » وانها تحزن حقيقة فى بعض الاحيان وتقرب فى كثيرها من المضحكات ولكنها تكون فى الغالب كما نريد فقد قال سقراط (٢) « ليس من ضرر يمس العاقل فى الحياة او الممات » وانبياء الحق بلا شك أسعد من دعاة الشر ومع ذلك فانا نفقد سنى سرور ثم نقاسى بتأن فى كل لحظة كثير أحزان وآلام ! ولا ينتظر احد ان يصيب فى كل مرمى فان الطبيعة نفسها قد تخطئ احيانا انما لا تتماد غيا فى طريق الثروة والسعادة ولا تيأس ابدا من حسن الحظ عند وجود الموانع فانا نرى فى التوراة « ان الباب الفسيح والطريق المتسع

ولما فقدت عيناه أملى على روجه كتابا بعنوان « النعيم المفقود » (١٦٠٨ — ١٦٧٤)

(١) Walpole من مشاهير رجال حكومة الانجليز (سنة ١٦٧٦ — ١٧٤٥

(٢) Socrate من اشهر فلاسفة قدماء اليونان وكانت كل تعاليمه بالمحادثة وبعد ان خدم وطنه جليل الخدمات وشى به فاعطوه سما شربه بكل سكون ومات (٤٦٨ — ٣٩٩) ق م

يؤدى الى التيه وكثير منه يدخلون والباب الصغير والطريق الضيق يوصل للحياة وقليل من يجده » ولكنى أخطئ ما يستنتجه البعض من هذه العبارة فانها تعلمنا ان طريق الحياة ليس بخطر ولا صعب بل هو ضيق وصعب على من يجده

وليس للحياة فى الحقيقة غير طريق واحد ولكن طرق الفساد كثيرة مثل ذلك كسفينة فى البحر ليس لها سوى خط سير واحد يوصلها للغرض وكل الطرق الأخرى تبعدها عن المينا الحقيقية انما لا يتبع ذلك ان الطريق القويم يكون مرشوما بالصخور والفورتينات أكثر من الآخر .

ولا ينكر احد ان الشر والحماقة يكونان احيانا من الصفات اللطيفة لها مسرة وقتية انما نكون فى مثل هذه الحالة كمن اشترى سرورا وقتيا بألم مستمر وربح قليلا مع فقد كثير وكسب سرور ساعة بثمن سنى أسف

هذا عن حياتنا الدنيوية . ولا نبلغ نعيم الآخرة الا باتباع طريق الخير فسرور الزهد أكثر من سرور حب النفس. والسعادة والغنى ليسا بالكلية أمرين متساويين لأننا نرى كثيرا من الناس على جانب عظيم من الثروة مع انهم تعساء . نعم ان الدرهم يمكن كثيرا ولكن الارادة الحية هى التى تجعل الانسان بهباتها على الدوام مسرورا وقد قال داير [١] « ان لى من نفسى مملكة حقيقة تكسبنى فى كل آن اعظم المسرات » وليس فى وسع كل انسان ان يحصل على الثروة والاشتغال او على الوظائف والرتب ولكنه

(١) Dyer فيلسوف وشاعر امريكى فى القرن الثامن عشر اشتهر بحبه للانسانية وله مؤلفات أدبية مفيدة

فى امكاننا جميعا ان نكون شرفاء كرماء فضلاء . والثروة الحقيقية ليست بما نملكه من المتاع ولكنها بما فى النفوس وكل المكاسب التى نحصل عليها ونتمتع بها توجب المسؤلية وحياتنا الحاضرة ليست الا فصل تشخيص واعمال الانسان خيالية وكل مميزاته كالفقر والغنى والسلطة والاستئثار ليست الا عوارض ظاهرية وبعد هذه الحياة يرفع الحجاب وتكشف الوجوه المستترة ويحاكم الكل باعماله لا بموجب ثروته ووظائفه وامتيازاته وقدرته

ندعو الله ان يجعل ما نقدمه مقبولا يوم الدين يوم لا نؤاخذ على ما نشتغل به او على كفاءتنا بل على ما فى نياتنا . يوم يظهر جليا ان الحياة الصالحة هى السعيدة حقا وان الذين يرتكبون المعاصى ويحبون انفسهم فى حياتهم هم الذين يسامون العذاب

وقد ورد فى امثال سيدنا سليمان قوله لولده « لا تنس يابنى تعليماتى لك وليحفظ قلبك وصاياى فانها تطيل عمرك وتزيد تقدمك »

٢

فى الذوق السليم

ان الذوق السليم لأهم ما يلزم للنجاح فى هذه الحياة وما المعرفة والبراعة باكثر منه ضرورة ومن لم يكن منا عنده ذلك الذوق فطرة يصعب عليه تمام التطبع به انما يمكننا الحصول على بعضه بدقيق مراعاة رغبات من يعاملنا . ومن هنا تعلم ضرورة حسن المعاملة وعظيم فائدة

انتهاز أقل فرصة يتيسر لك فيها ان تسر الغير فعامل الناس بأدب وكما قالت السيدة مونتاج[١] « لا يكلف الأدب طالبه شيئا بل يكسبه كثيرا ويسهل عليه نوال مايصعب الوصول اليه بالدرهم » وابذل جهدك فى استمالة القلوب اليك فقد قال اللورد بيرلى الى الملكة إليزابيت[٢] « تملكى قلوب رعيتك بحسن المعاملة تكن دراهمهم فى قبضتك » ولطالما نجح الكثير بذوقه السليم فى مقاصد يصعب عليه بلوغها بالعنف ولا يجهل أحد ما قاله لافونتين فى قصة الشمس والريح[٣] وانه ليسهل استخدام الناس باللين ولكنه يصعب إكراههم على أى عمل . ولا قاعدة فى السياسة أضمن من تجنب استعمال السلطة لأن استجلاب القلوب على العموم أفيد بكثير من إخضاعها وقال شكسپير[٤] « ان ما تريد نواله بالارهاب يسهل عليك بلوغه بالابتسام »

وينبغى ان تكسب باستحقاقك ثقة معاشريك فقد ساد كثيرون بحسن اخلاقهم وبلغوا مناصب يعز نوالها على مثلهم .

ومتى أجازت لك الحكمة والعدل إجابة مطلب فبادر به والا فلا تخش

---

(١) Lady Montague سيدة انجليزية اشتهرت بسعة علمها ووفرة عقلها ورائق جمالها (١٦٩٠ — ١٧٦٢)

(٢) Lord Burleigh من رجال حكومة انجلترا مدة حكم الملكة اليزابيت بنت هنرى الثامن (١٥٣٣ — ١٦٠٣)

(٣) Phœbus et Borée يقصد منها خلاصة حكمتها القائلة (ينال باللطف ما لا ينال بالعنف)

(٤) Shakespeare شاعر وراوية انجليزى عظيم الشهرة وله مؤلفات جليلة تفتخر الانجليز ببلاغتها ودقة معانيها (١٥٦٤ — ١٦١٦)

ان تقول لا فكل الناس يعرفون قول نعم ولو أنهم لا يحسنون فى الغالب قولها ولكنه من الصعب جدا معرفة قول لا . وكم من ثروة بددت بسبب هذا النقص : قال بليتارك (١) « لم تقع اهالى اسيا الصغرى فى مهين الاسترقاق الا لعدم معرفتهم قول لا »

وما دام الرفض محتملا فيجب ان نعرف التلطف فيه بان نجعل كل من له ارتباط بنا مسرورا من معاملتنا راغبا فى دوامها

ولمراعاة الاحساس حظ عظيم فى المعاملة وما من رجل الا وتؤثر فيه المجاملة والآداب بل كم من مقاصد بلغها الانسان بالتودد والتحبب وما كان الدرهم وحده بقادر على قضائها

وفى مقدرتنا جميعا ان نكون محبوبين ولا يكلفنا ذلك غير الرغبة الحية اللازمة لنا فى كل آن : قال شيستر فيلد « من صدقت رغبته فى استجلاب محبة الناس له نال مقصده لامحالة ومن لم تكن عنده تلك الرغبة لا يكون محبوبا ابدا » ومن لم يوفق فى شبابه لنوال هذه المنحة الجليلة عسرت عليه بعد فكم من عظيم ذى قلب طاهر ونية حسنة صير الناس اعداء له بخشونته فى المعاملة . فاعمل على ان تكون محبوبا وهذا لا يفقدك شيئا بل يكسبك سرورا ينشرح به صدرك فى كل آن وهو لعمر الحق خير مكافأة تمنح للانسان

وكن بصيرا ثابت الجأش فكما انه ضرورى لك ان تكون ذا ذكاء

---

(١) Plutarque شاعر يونانى اديب له كتاب فى ترجمة حياة رجال اليونان والرومان (٥٠ — ١٢٠)

ودراية ضرورى لك ايضا ان تكون قوى القلب متوقد القريحة — فالحزم الحزم والثبات الثبات فانهما من أنفس الفضائل وفيهما سلامتك فى وقت الاخطار والمصاعب

ولا تحتقر من دونك ولا تفتخر بقوة عقلك او بالثروة التى ورثتها عن آبائك بل عليك ان تعرف طريق الانتفاع بهما واعلم ان الناس لا تظهر دائما كل ما فى نفوسهم وان معرفة ما فى الكتب اسهل بكثير من معرفة ما فى النفوس وان اعظم مايرجع اليه فى مثل ذلك هى العيون فقد قال إمرسون(١) « عند ما تختلف العين واللسان فى شئ فاللبيب لا يعتمد الا على ما تشير اليه العين »

ولا تركن كثيرا الى الاشغال التى ترجو من ورائها طائل المكسب ولا ينبغى ان يحب الرجل الرجل من أول وهلة ولا المرأة المرأة كذلك فاذا أظهر لك احد ممن تعرف أنه لين العريكة صادق الوعد فلا تثق بقوله ثقة عمياء ولو كان مخلصا لان اللسان فى الغالب يسبق كثيراً مافى النفس بل ربما كانت مصاحبته لك لفائدته الشخصية. فلا تتعجل فى مصادقة كل من أظهر لك المودة فتصافيه ولا فى بغض من توهمت عداءه فتعاديه .

وكيف نفتخر باننا عقلاء نبهاء وندعى ان العقل رائد الانسان ثم نرى أن اسباب عدم الارتباط وغرائب المستغربات متحكمة فينا وأن اعمالنا لا اساس لها فى الغالب الا مجرد أوهام وتطوحات أميال !

---

(١) Emerson فيلسوف وشاعر امريكى اشتهر بمحبته للانسانية وله مؤلفات جليلة (١٧٠١ — ١٧٨٢)

وانك اذا راعيت احساس الناس فى كلامك كان تأثيره اعظم مما اذا راعيت فيه العقول

والمناقشة موردة الخطر تؤدى فى الغالب الى سوء التفاهم والبغضاء وربما أفقدت كلمة واحدة صاحبا عزيزا فاذا اضطررت الى مناقشة تجاوز ما امكنك واجتهد فى ان تثبت امرا مهما أهمل من الموضوع لتظهر كفاءتك فيميل الكثير الى تعضيدك .

وقليل من تقنعهم المناقشة وأقل منهم من يقربانه غلب. نعم ان الاقرار بالخطأ صعب على النفس ولكن الاستمرار عليه مع التعنت فيه أصعب بكثير

وما دام الاقناع بالحجج لا يأتى فى الغالب بتمام الفائدة فاظهر أدلتك بكل اختصار ووضوح وربما بذلك تزعزع يقين مناظرك وهذا كل ماترجوه

والمحاورة علم وليست العقول النيرة هى التي تنجح فيه وحدها. والالتفات لا يقل عن المحاورة صعوبة وأهمية فلا تنتقد كل ما تسمعه وارجئ حكمك حتى تدرك جيدا احساسات مخاطبك. واذا أظهرت نفسك بمظهر المجامل الألوف تستنصحك الناس وينشرح صدرك من رؤيتك قدعزيت من رزؤا بخطب او أعنت من داخلهم عدم اطمئنان

ولا تنتظر ان يشار اليك بالبنان وانت شاب بل اصغ وع وانظر كل مايحصل لان المتفرجين هم الذين يرون المعارك اكثر من غيرهم . وكلما كنت فى خفية عن الابصار كلما زادت فائدتك وكنت كمن ملك طلاسم السحر الخرافية التى تجعل الانسان مستورا عن الانظار . فلا تشغل فكرك بحب الظهور بل جد واجتهد ولا تقصر الناس عن تقديرك حق قدرك فقد قال

لابرييز « قيمة المرء ما يحسنه »

ولا تتخذ لك اعداء فان هذا بئس ماحصلت وفى الامثال « لاتجب المجنون على جنونه لئلا تكون مثله » وتذكر ان الجواب اللطيف يطفئ التهييج وان الجواب المر أسهل على النفس من الاستهزاء والسخرية وتسعة فى عشرة من الناس يفضلون الضرر والمذمة على الاستهزاء بهم. وسهل على النفس ان تحمل خطأها من ان ينبهها عليه الغير فانه لما جن تراسيلوس اليونانى توهم ان جميع سفن پيريه ملكه ولما شفي كان جوابه لكل من ذكره بخطئه ان كريتون (١) هو الذى سرقه متاعه

ولاتلم من يقصرون فى حقك ولا تتوهم انهم يهزؤون بك فتكون كسكروب الذى قال « انى متأكد من ان هؤلاء يتكلمون عنى لانهم يقهقهون » فلا تغضب اذا رأيت احدا يضحك منك بل اضحك معه بقلب خالص متى أمكنك فكل الناس يحبون من يعرف ان يضحك من أضحوكات هو موضوعها وهذا فى الحقيقة دليل على حسن الطبع وسلامة العقل. واذا كنت اول من يضحك من سخرياتك أقل الباقون من الضحك فاستمر بثبات فيما شرعت فيه ولا تظن ان استهزاءهم يحط من قدرك اذ لا حطة فى ان يظهر الانسان بحقيقته بل الحطة فى ان يظهر نفسه بغير ما هو عليه. وكن صادقا بحيث لا يمنعك الصدق عن الاحتراس. ولا تتكلم كثيرا عن نفسك سواء كان فى صالحك أو لضدك واقبل ان يتكلم الناس عن انفسهم بما يشتهون فانما يفعلون ذلك لانشراحهم منه وكلما

(١) Criton من مشاهير أغنياء قدماء اليونان اشتهر بصحبته لسوقراط

اظهرت لهم زيادة رغبة فى الاصغاء اليهم كلما زادت محبتك عندهم

ولا تر الناس أنهم سفهاءاو مجردون عن العقل اللهم الا اذ اضطرك واجبك لذلك والا فيكون لهم حق الشكوى منك وربما كنت مخطئا فى حكمك فترمى بما رميتهم به

هذا فيما يختص بشخص واحد ويا لصعوبته اذاما وجه لأمة : قال بورك (١) « انه ليستحيل علىّ أن أخطئ أمة اذ لا شئ أشد ظلما واكثر حمقا من اتهام أمة بأسرها » لان الاشخاص ربما تنسى او تسامح بخلاف أمة ومع ذلك فاذا تجاوزت الاشخاص عن خطأ فانها لا تسامح اعتداء

ولا شئ آلم من التشنيع وانك لست بنائل بغيتك اذا سخرت من الناس وجعلتهم غير منشرحين منك

وقد مدح جوث (١) الانجليز فى محاورة له مع إيكار مان (٢) فقال: « ان طريق ظهورهم وسلوكهم فى الجامعة لمفعم بالثقة والسهولة بحال يظن معها أنهم الرؤساء أينما حلوا وان الدنيا فى حوزتهم فأجابه إيكارمان وانى لا أؤكد مع ذلك ان شبان الانجليز من اهل ويمر أشد ذكاء واكثر تعلما واخلاصا من شبان المانيا فأجابه جوث : ليس هذا مدار البحث ايها الصديق لان ذلك لا ينشأ عن الأصل او الثروة انما الذى يميز الانجليز

---

(١) Burke من مشاهير خطباء انجلترا (١٧٣٠—١٧٩٧)

(٢) Gœthe اشهر شعراء المانيا وله كثير من المؤلفات المفيدة (١٧٤٩—١٨٣٣)

(٣) Eckermann من علماء الآداب فى المانيا اشتهر بصحبته مع جوث وله كتاب فى محاوراته معه ومؤلفات اخرى (١٧٩٢—١٨٥٤)

هو اقتدارهم على ان يظهروا بما جبلوا عليه طبعا وليس فيهم من نقص يقال بل هم الخلقة التامة ولا انكر انهم شديدو الحمق احيانا بل أقر لك به ولكن هذا له نصيب من الأهمية أيضا »

واستعمل الصبر والجلد فى جميع اعمالك ومشروعاتك واعلم ان كثيرا من الناس يفضلون ان تصغى لما يقولونه بالتمتمات على ان تبلغهم حاجتهم ولكم من عدو أوجب عليه الملل ترك المقاومة

ولا تغضب ابدا وتعلم باى وسيلة ان تحكم نفسك وان تسكت عند اللزوم فقد ورد فى الامثال « امنع غضبك واترك حدتك » ولا تثر غضبك خصوصا لعمل مضرة وتذكر ان الجواب اللاين يسكن الحدة وان الكلام العنيف يزكى لهيب الغضب

ولا تبقين بمجلس لا يحتاج لك فيه فمحال الاحتياج اليك ليست بقليلة : روى سيلدن(١) عن جاك الأول(٢) انه قال لذبابة وقعت على عينه « أليس لى من فسيح الممالك ثلاثة حتى لا تجدى غير عينى تقعين عليها »

ومن الناس من يظهرون أنهم منحوا هبة كثرة التكلم فيكثرون فيما لا فائدة فيه وهم بذلك يقتلون عواطفنا ويحيون أليم التذكار عندنا واختلاف الرأى بيننا

ولا علم أكثر ضرورة من علم معرفة الناس لانه يهمنا كثيرا معرفة

---

(١) Selden من مشاهير كتاب الانجليز (١٥٨٤—١٦٥٤)

(٢) Jacques I ابن مارى استوارت وكان ملك ايكوسيا وبريطانيا العظمى (١٦٠٣—١٦٢٥)

من يجب الثقة به او الابتعاد عنه وما حدود هذه الثقة وطرقها ومن الذين يفضل انتقاؤهم لمساعدتنا في الاعمال: قال قونفيسوس (١) « اذا لم تثق من احد فلا تستخدمه وان استخدمته لزمتك الثقة به » وفي الواقع فان الثقة بمن عرفناه لأصوب بكثير من عدمها انما يلزم ان تكون ثقة تامة غير عمياء . وكن رزينا ميالا للسكينة وان كنت مكثارا فلا تلم الغير على ذلك وفي الامثال « لسان العاقل من وراء قلبه وقلب الاحمق من وراء لسانه »

واستعمل العقل في كل قول وعمل واستشر الحاكمة ولو انها غير معصومة من الخطأ الا انها تبعدك عن كثير منه ولا تكن كثير اللغط فقد ورد في الامثال « اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب »

وكثير يتكلمون حبا في الكلام لا لغزارة افكارهم على ان موضوع الكلام تمرين العقل لا تحريك اللسان وكثيرا ما أسقطت اطالة الكلام وحبه وقعه من القلوب : قال بيتلر (٢) « قد تأخذ الرجال حمية الخطابة فيقولون اكثر مما يريدون وهذا التسرع الزائد وعدم الاحتراس في القول من اعظم اسباب حصول الملل والمتاعب» وقال لابريير «من أعظم المصائب وجود عقل لا يساعد على التكلم او حكمة لا تشمل السكوت » وقال بليتارك « لما سئل ديمارات (٣) عما اذا كان سكوته عن كبر او عن نقص

---

(١) Conficius اشهر فلاسفة بلاد الصين وقد اسس لهم دينا على قواعد الادب (٥٥١ — ٤٧٩ ق‌م ٠)

(١) Butler من مشاهير شعراء الانجليز (١٦١٢ — ١٦٨٠)

(٢) Demarte ملك اسپارته (٥١٠ — ٤٩١ ق‌م ٠)

فى الكلام كان جوابه : « انما الاحمق هو الذى لا يعرف ان يسكت » وقال سيدنا سليمان « أرأيت الرجل الذي ينسى ما يقول فى خطابته ؟ انه ليرجى من احمق اكثر مما يؤمل فيه »

ولا تعمل لاثبات رياستك اذ لا شيء يغضب الناس أكثر من ان يشعروا بانهم أدنى منك ولا تؤكد ماتخبر به فانه يتأتى الخطأ فيما تحققته وقد تهيئ لنا الحافظة مستغربات تغش آذاننا وأعيننا كثيراً وكل تخيلاتنا ليس لها فى الغالب من أساس متين ومع ذلك فما الذى ينتابك اذا لم تدع حقيقة اعتقدت وثوقك منها ؟

ولا تثق كثيراً مما تعمل ولا تهمل اقل فرصة تأتيك بفائدة فقد قيل فى الامثال «توجد مسافة بين الكأس والشفتين» ومن ترقب الفرص وانتهزها بلغ أمانيه ومن لم يرد عند مقدرته لا يقدر عند ارادته ومن تفوته فرصة لا يمكنه وجودها بعد : قال شكسبير «يوجد فى اعمال الانسان مد وجزر فمن انتهز فرصة المد منحته السعادة ومن أنقصها فانما تنقضى حياته بين أغوار ومصائب وكلنا يعيش على هذا القياس فيلزمنا السير متى كان التيار مناسباً والا فلنستعد لفقد كل عزيز وغال » .

وكن محترساً انما لا يكون احتراسك منشأ لخوفك من الوقوع فى الخطأ فان من لا يريد ان يخطأ ابداً لا يمكنه القيام بأى عمل

ويلزمك الاعتناء فى الملبس الذى لا يمكننا الاستغناء عنه انما يكون التجمل فيه بغير تكلف او فقد كثير من الزمن والدرهم فكل ما يجب عليك هو انتقاء متين الملابس ودوام نظافتها . وانه لصعب شرح اهمية التزين

ومعظم الناس يحكمون في الغالب على حسبها فان رأوك مهملا شخصك كان لهم الحق في نسبتك الى الاهمال في باقي امورك

واختبر من تروق لك حسن عاداته لان العادات كجواب وصية مفتوح وهى بعض موضوع اهتمام الكثير من الناس وكل موضوعه عند بعضهم

ولا تكفي الكفاءة والعلم لاستجلاب القلوب وانما هى التى تثبتها بعد استجلابها فخوّل نحوك الانظار بحسن الهيئة اولا ثم باتقان عملك وحسن سيرك والقلوب لا تتأخر عن الانقياد اليك . فان احوال الدنيا كرواية كل له فيها فصل ولا يحسن تمثيل رواية الا باتقان كل مشخص

وما اللطف باقل فائدة في الحياة من باقي الفضائل وفي الامثال الانجليزية « من الناس من يسرق حصاناً من حقل ولا يخشى في ذلك عقاباً وآخر لا يمكنه رؤيته من فوق حائط » وما ذلك الا لأن الأول عود الرذائل والثاني الفضائل وقال هوراس (١) « ان نشاط الشباب وفصاحة اللسان لا يكفيان لنوال المقاصد ان لم يقرنا بالذوق السليم واللطف »

٣

في الدرهم

قال احد النبهاء « لا يكون الغنى والفقر باعتبار ما يكسبه الانسان بل بما يحسن صرفه » وبقطع النظر عن رغبة الحصول على الثروة فان

(١) Horace شاعر لاتيني شهير (سنة ٦٤ ق م) وله مؤلفات عظيمة منها صناعة الشعر التي شرحها بوالو الشاعر الفرنساوي الشهير .

الاقتصاد والادخار للمستقبل الغير محقق أمر شرعي وواجب . فهناك مثل مؤلم يقول « اذا دخل الفقر من الباب خرج الحب من النافذة» وانه لمحزن ان يرى الانسان زوجته واولاده ينقصهم الغذاء والملبس واعتناء الاطباء وهو غير قادر على إذاقتهم طعم الراحة او تغيير الهواء الذي هو ضروري لهم ثم يشعر من نفسه بانه كان في امكانه منع تلك الآلام لو استعمل قليلا من الحزم او ضحى بعض ملاهيه ولو الطاهرة منها

والاقتصاد لجمع الدرهم على الدرهم امر دنيء وحطة في النفس انما الاقتصاد لحفظ الاستقلال امر حق يدل على الشهامة فاتخذ كراسة تكتب فيها ما تصرفه بدون اهمال ولا تشحنها بدنيء المصروفات بل بما يكفيك لمعرفة أوجه صرف دراهمك وثمن ما تشتريه . واعلم ان من يعرف مقدار ما عنده وثمن ما اشتراه لا يصرف درهماً في غير موضعه ابداً . وانما المبذرون يبددون اموالهم وعيونهم مغلقة اذ لا يبلغ الجنون حداً يجعل الانسان ينظر خرابه بعينيه

واحترس على الاخص من ان تجاوز صرفك حد دخلك واجعل نصب عينيك ضرورة وضع جزء منه ولو قليلا بجانب في كل عام . ولا تستدن ابداً فقد قيل « اذا كان دخلك خمسمائة فرنك وصرفت اربعمائة وتسعة وتسعين فقد كسبت الراحة بعكس ما اذا صرفت خمسمائة وواحد فانه يحيق بك الشقاء مع ان الفرق فرنكان فقط »

ولئن قلت ان الاستدانة توجب الاسترقاق الحقيقي فلست بمخطئ ابداً لان من يستدين يزداد ألماً . ولقد أصاب من قال «ان الجوع والبرد

ولبس الخلق والشغل المضنى والاحتقار من الغير وسوء الظن واللوم بغير حق كلها أسباب آلام ولكن التحمل بالدين أشد ألماً من جميعها» فلا تستدن ابداً واذا لم يكن معك غير خمسين صلدياً اشتر قليلا من الذرة وحمصه وكله ولا تقترض من احد ما ريالا . وقد قسم كوبدن(١) الناس الى قسمين قسم اقتصد وآخر أسرف . وجميع المنازل والطواحين والقناطر والسفن والاعمال العظيمة التى تأسست عليها المدنية والسعادة الانسانية كلها من عمل من اقتصد . اما الذين أسرفوا فقد كانوا لهم الارقاء وهذه سنة الله فى خلقه من قديم . ولئن وعدت بالنجاح فريقاً دأبه الكسل وعدم التبصر والالتفات لأكونن اكذب الكاذبين . وقد كان معبد ارتميس فى إيفيزا كما قال پليتارك مكاناً مقدساً وملجأ للمدينين الذين يطاردون بدائنيهم ولكن الاقتصاد فى كل مكان ملجأ مفتح الابواب للنفوس القنوعة حيث تجد فيه الشرف والسرور وحرية التمتع بكثير الخيرات

فلا تستدن مطلقاً بل ولا تدن احداً الا اذا اقتضته المعاملة لانك فى الغالب لا تسترد ما اقرضته ولا تكسب الشكر الواجب لك والمدين يكون دائماً فى احتياج لما رده اليك فاعط بكرم بقدر ما فى استطاعتك ولكن لا تؤمل استرداد ما أعطيت

واذا عسر عليك الحصول على الدرهم فلا تقنط ابداً لان الليل المظلم الطويل يعقبه الصبح البلج انما اذا أقبلت عليك الدنيا فلا تكن مسرفاً وحدث النفس دائماً بان الثروة لا تدوم وان كثيراً من الناس بسبب اغترارهم

(١) Cobden اقتصادى شهير

ببداية اقبالها أصبحوا فقراء تعساء : ولا تتعجل في ان تكون غنياً ولا تجعل حب الدرهم يستولي على قلبك فانه اذا أتيح للبعض كسب الثروة الطائلة فان الجميع قادر على الحصول على مايقوّم به أود المعيشة بقليل من الالتفات والاقتصاد . وانا نسمع كثيراً عن أناس اثروا بطرق يمجها الذوق السليم وتأباها الاحساسات الشريفة على ان المعدم ليس بفقير بل الفقير في الحقيقة هو غير المستقيم كثير الاحتياجات

ولقد بين لنا السير جمس باجيت (الحكيم الانجليزي الشهير) في احدى خطبه احصاء عن تلامذته فقال « ان من الالف تلميذ الذي امكنه تتبع سير حياتهم مائتين تركوا مهنة الطب وورثوا او ماتوا ومن الثمانمائة الباقين ستمائة نجحوا نجاحاً تاماً والبعض منهم النجاح الفائق والذين لم ينجحوا كانوا ستة وخمسين منهم خمسة عشر قطع الأمل من نجاحهم وعشرة أضاعوا انفسهم بسبب عدم اعتدالهم وانهماكهم في اللذات ومن مجموع كل التلامذة خمسة وعشرون فقط لم ينجحوا لاسباب غالبة على ارادتهم » فكن واثقاً من انك اذا قبلت القيام بخدمة في اى مهنة فانه ينتفع بك

والقليل من عنده دواعي اشتغال حقيقية في الحياة ولكن الطبيعة تطلب قليلا وتعطي كثيراً والزيادة دائماً غالية الثمن ولقد أصاب فرنكلن (١) حيث قال « ان ماينفقه الانسان على ارتكاب نقيصة واحدة يكفي لتربية

(١) Franklin عالم اميركي وسياسي شهير وهو ممن اشتغل في طلب استقلال الولايات المتحدة (١٧٩٠ — ١٧٠٦)

ولدين » ومن مواعظ الدوق دى ولنتون[١] قوله « زيادة الربح نقص فى الضمان »

ولا تجعل كل مالك فى عمل واحد لانك مهما كنت خبيراً او واثقاً من ضبطك اعمالك قد يتأتى ان تخطئ فى حسابك ولطالما اخطأ كثير من أنبه التجار واصحاب البنوك . والعاقل لا يؤمل ان يصيب فى كل الأمور لاننا نعلم ان ٢ و ٢ تكون ٤ ولكنها ايضا تكون ٢٢

وتعود الصبر وتعلم الملل عند الحاجة فقد قال باچهوت الاقتصادى الشهير « ان كثيراً من الناس قد اضاعوا انفسهم بعدم كفاءتهم او طويل مكثهم فى محال اشغالهم بلاحراك »

وما خلق الانسان الا ليشتغل وكل منا عليه عمل سواء اراد اولم يرد وعلينا جميعاً واجبات نقوم بها ولنا دور نديرها ومصروفات نحصرها وتختلف كل هذه الاعمال باختلاف الاشخاص ولكن صغار الأمور قد تكون فى الغالب اكثر ارتباكا من كبيرها

ويرتبط النجاح فى كل عمل بسلامة العقل ودقة الالتفات وحسن الترتيب اكثر من ارتباطه بقوة الذكاء الطبيعية وهذا مما يجب ان نهنى به انفسنا . وقد قيل فى قديم الامثال « من يكفى دكانه دكانه يكفيه » وقد روى اكزونوفون[٢] عن ملك العجم انه اراد يوماً ان يعرف الطرق التى تمو

(١) Duc de Wellengton قائد انكليزى غلب نابليون فى واقعة واترلو سنة ١٨١٤ (١٨٥٢ — ١٧٦٩)

(٢) Xénophon قائدومؤرخ وفيلسوف يونانى شهير (٣٥٥ — ٤٤٥ ق . م .)

بها جسم حصان جميل عنده فسأل أمهر سائس عن ذلك فكانت اجابته « عناية المالك »

ومن المهم جداً معرفة تمرينات عملية في الاعمال فقد أكد لي احد الثقات « انه بحث عن أسباب خسارة كثير ممن اشتهروا بطيب الخلق فوجد ان ليس من سبب غير البطء في العمل وعدم الترتيب والقدرة على السير كما تقتضيه الظروف ثم تعنتهم في الرأى وبالاختصار كان ينقصهم التمرين العملي »

والترتيب ومعرفة الوسائل امران لازمان في كل عمل صغيراً كان او كبيراً فاجعل لكل شيء محلا (وهذه خير موعظة) ورتبه باعتناء يتوفر عليك كثير من الزمن فقد قال اكزونوفون « ان عدم الترتيب يمثل لي زارعاً يبذر حبوب قمح وذرة وخضروات بلا انتظام وعند ما يريد ان يأكل عيشاً او يصنع فطيراً او يطبخ طعاماً يضطر لفرز ما كان يمكنه ان يجده حاضراً وقت الطلب »

وكثير من الفلاسفة من عهد ارسطو [1] الى عهد كرايل [2] ذموا من يشتغل بالتجارة وغيرها من الأعمال بدعوى انها احتياجات دنيئة تحط من القدر حتى ان افلاطون [3] حرم من الحقوق المدنية من يتجر في جمهوريته واباح التجارة (باعتبارها مهنة دنيئة) لمن يرغب فيها من

(١) Aristote من مشاهير فلاسفة اليونان الاقدمين (٣٨٤ — ٣٢٢)

(٢) Carlyle فيلسوف يوناني شهير (٤٢٩ — ٣٤٨ ق . م .)

(٣) Platon مؤرخ انجليزي (١٧٩٥ — ١٨٨١)

الاجانب . ولكنه حيث صارت التجارة من الاعمال الضرورية للفريق الاعظم من الناس فكل ما يؤسفنا كثيراً هو ان يكون لها سيء التأثير على الاخلاق او ان يصعب علينا التوفيق بينها وبين التربية العالية . نعم انه من المؤكد ان من يشتغل بعمل لا يكون عنده وقت للاشتغال بشيء آخر الا انى اذكر هنا بعض من جمعوا بين صفات عالية ممن نبغوا فى العلوم والبلاغة فان ناسميث كان فلكياً وصانعاً وجروت بنكيراً ومؤرخاً وايڤانس صانع ورق ورئيساً لجمعية الآثار وأميناً لصندوق الجمعية الملوكية وبريستونش تاجراً ومدرساً لعلم طبقات الارض فى كلية اكسفورد وروچرس وپريد اصحاب بنوك وشعراء . وهل يسمح لى بذكر اسم والدى ليبوك الذى كان بنكيراً ورياضياً وأميناً لصندوق الجمعية الملوكية ووكيلا لها فى كثير من السنين ؟

واقد بالغ كرليل فى معارضته لمن يقول بوجوب الشراء بثمن قليل والبيع بثمن غالٍ حتى انه طلب تحديد اقل ثمن لشراء وبيع القطن بل وغيره من الاصناف فكأنه بذلك يريد ان لا نصنع القطن بمصاريف أقل من الأمم الاخرى حتى لانبيع منه مقادير اكثر منها بل ويريد ان لا نبيع بثمن أقل وان نتفق معها على توحيد ثمن البيع وهذه كلها تخيلات لا يمكن اتباعها لاننا اذا قللنا من بيع القطن فقد قللنا من شراء المأكل . ومن المسلَّم عند كرليل نفسه انه كلما كان ثمن الحبوب زهيداً كلما كثر المبيع منه فاذا اتبعنا قاعدته المتقدمة الذكر نجد كثيراً لا يملكون شيئاً لشراء ما يحتاجونه من الملابس بأثمانها التى تحدد مع انه فى امكاننا البيع

بثمن اقل منها ولكن كرليل يحرّمه فينقص بعض الناس الملبس والبعض الآخر المطعم . ومع ذلك فان معنى التجارة هو مبادلة ما يمكن صنعه بثمن قليل بما لا يمكن الحصول عليه بذلك الثمن والقاعدة الاساسية فى التجارة بل مركز فوائدها هو الشراء بارخص ما يمكن والبيع بأغلاه لانا نشترى ممن كثر احتياجه للبيع ونبيع لمن كثر احتياجه للشراء وكل طريق يخالف ذلك يذكرنا المثل المشهور « حمل الماء الى النهر ».

ولقد عاش فى الفاقة كثير من اعاظم الرجال علماً وذكاءً وشهرة وسعادة فقد عاش وردسورث[1] مع اخته سنين عديدة بايراد قدره سبعة وثلاثون فرنكا فى الاسبوع وكانت هذه المدة أسعد أيام حياته . فاذا لم يسعدك الحظ بان تكون غنياً فان الذكرى والاخلاص يجعلان لك عالماً يكفيك من قليل إيراد وضئيل مسكن وعزيز صاحب

ولا خطأ اكثر انتشاراً بين الناس من الاعتقاد فى قوة الدراهم :

فهل للغذاء ؟ قال السير تيمبل « ان الغنى اذا اراد تحسين صحته يلزمه ان يتغذى بغذاء الفقراء » والمأكولات البسيطة تعادل فى الحقيقة أكلة وليمة فاخرة كما ان المأكولات الصحية زهيدة الثمن فى أوانها وفى غيره لاطعم لها . وبيضة جيدة هى أكلة كاملة

وهل لشراء الكتب ؟ انه ليجب ان يكون الانسان معدماً جدا حتى لايمكنه شراء الكتب التى يريد مطالعتها فان أنفسها كالكتب المقدسة واعمال شكسبير وملتون أصبح ثمنها زهيداً

(١) Wor dthworth من مشاهير شعراء الانجليز (١٧٧٠—١٨٥٠)

وهل لاكتساب الصحة والذكاء والاصحاب والجمال والراحة في الدنيا؟ قال قونفسيوس « ان دون دى تسيه كان غنياً جداً وما كان يحبه أحد ويبكيه مات جوعا والامة تبكيه للآن » وقال بيكون « ان ذوى الثروة الطائلة لاهون عن انفسهم وهم بين انشغالاتهم المتشعبة لا يسمح لهم الوقت بالاعتناء بامر صحتهم الجسمية والروحية » وكل السلاسل ثقيلة الحمل ولوكانت ذهبا ولا يشك أحد في ان الدراهم سبب عظيم في انشغال البال وهي كالفقر المدقع تجلب الاحزان وكلنا يرى معظم الاغنياء ارقاء ثروتهم لا مالكين لها . ولكم من أغنياء كانت الدراهم سبباً في موتهم الأدبى بل كم منهم من يجد في قصوره اتعابا لا يجدها الفقير في عشته . انما العقلاء وحدهم هم الذين يستخلصون السعادة من الثروة اما من يتعجل في ان يكون غنيا فانه يمضى عمره في الفقر وقد قال ريسكان (١) « ان العيش في منزل بسيط مع إمكان الاعجاب من بذاخة القصور يكسب الانسان سعادة أشهى من ان يسكن في قصر ولا يرى ما يعجب منه »

ويلزم للتمتع بالثروة عدم جعلها الشغل الشاغل وقد قال سعدى (٢) « من عنده كفايته فقد حفظ بها ومن عنده كثير المال فانما هو الذى يحمله » وقال بيكون « ما أذل من يحتاج لقليل ويحذر الكثير » وقال شكسبير « كن كثير الثروة تعش فقيرا لأنك تكون كحمار أثقله حمل الذهب ولا يكون

(١) Ruskin من مشاهير ادباء وشعراء الانجليز في القرن الثامن عشر

(٢) Sady أشهر شعراء العجم مؤلف كتاب جولستان (جنينة الورد) (١١٨٤—١٢٩١)

لك عمل غير حمل تلك الثروة حتى الموت الذى ينزع عنك كل الاشياء »
وتؤدى الثروة الى البخل فقد تعلمنا فى المدرسة « يزيد حب الذهب بقدر مايكثر الذهب[1] » وقال بيكون « ان الفقير ينقصه كثير أشياء ولكن البخيل ينقصه كل شئ » وقال ايضاً « من يتعب ويكد فى البحث وراء الثروة يلزمه زمن اكثر ممن يشتغل بأسمى من ذلك لان الثروة لاقيمة لها الا فى الحياة التى لاقيمة لها مادامت متشربة بتعب البحث وراء الثروة » وقد قيل فى الامثال « الفقر خطيبة الشاعر » والعبارات التى نستعملها فى التعبير عن كثرة المال ترينا الحقيقة فقد يقال ان فلانا ذو ثروة طائلة محشو بالذهب يتدحرج عليه ولكنهم لايقولون انه يتمتع حقيقة بالذهب . وفى الواقع ان من يجمع الدراهم لا ينتفع بها فانه يجمعها ولا يدرى من الذى يجنى ثمراتها . ويثبت لنا شارميدس فى كتاب حديث الجمال لاكزونوفون « ان الفقير مميز عن الغنى لانه من المحقق ان العيش فى الأمن خير منه فى الخوف وان الحر أفضل من الرقيق وان يُحترم الانسان أرفع من يحترم غيره وان يشعر بثقة حبه لوطنه أشرف من ان يكون مركزاً لتضارب الاوهام . فانى لما كنت غنيا فى هذه المدينة كنت أخشى ان يكسر بيتى سارق فيسلب مالى وربما مسنى بضر ولكنى الآن انام مستريح الفؤاد ولى حق البقاء او الانتقال انى شئت وكنت مذموماً على الالسن ولكنى الآن فى خفى عن الاعين وكنت تعيس الحظ بسبب تذرع الحكومة لاملاكى ولكنى الآن أمنت الخسارة لانه ليس عندى

(١) Crescit amor nummi, quantum ipsa pecunia crescit

سوى الأمل في المكسب على الدوام »

ولقد اصاب شارميدس في كثير من قوله ولكنه ليس كل الحقيقة خصوصاً وانه قال ذلك وهو في وليمة فائقة زانها صوت الموسيقى الشجي

وحسن التصرف في الدراهم مجلبة لكثير الخيرات لأن الذهب هو القوة وكما قال احد نبهاء الفرنساويين «ملاك الملوك» كما انه الواسطة في تحصيل الرغبات : فان كان الهواء الجيد والدار الجميلة والكتب والموسيقى خيرات فالدراهم واسطة نوالها . وان كانت الراحة حسنة فالدراهم واسطة الفوز بها وان كان الاطلاع على ما في العالم امراً مفرحاً فالدراهم واسطة السياحة . وان كان التمكن من مساعدة الاصحاب وغيرهم في اوقات الشدائد يعدّ مكرمة فالدراهم واسطة نوال هذا الارتياح العظيم . فعليك اذن كما قال سويفت(١) بابقاء بعض الدراهم انما أعط لها بعض حكمتك لا كل قلبك

والبخيل من يحب الدراهم لذاتها ويتطرف في الاقتصاد حتى يصير كآلة لجمع الذهب . وتعلمنا الحياة وجوب اجتناب كل مافيه دناءة نفس وذلة وحب المال أقبح كل هذه الصفات لان مايهم في الثروة هو معرفة استخدامها بحكمة . وقد ورد في الامثال « ان حسن التصرف في المال يزيده ومن يغل يده يعيش دائما في قحط » وقد كتب احدهم على لوح قبر صديق له « اننا نملك ما وهبناه وما صرفناه عاد علينا وما تركناه فقدناه »

فكن كريما من غير تطرف ولا تكن ممن يظهرون انفسهم في مظهر الاغنياء وهم فقراء او ممن يتظاهرون بالفقر وهم اغنياء واعلم ان من يحسن

(١) Swift من مشاهير مؤلفي الانجليز (١٦٦٧—١٧٤٥)

على الفقراء كأنه يقرض الخالق الذى يجزيه خير عمله وكما انه يجب على الغنى النظر فى شؤون اولاده عليه أيضاً النظر فى شؤون الفقراء حيث ان ما نكسبه بكدنا هو حق لنا ولكن ما نرثه عن آبائنا ليس لنا وحدنا . ووصية الاغنياء ان لا يتكبروا فى هذه الدنيا وان يثقوا بزوال المال كوثوقهم بقوة الخالق الحى الذى وهبهم جزيل نعم يتمتعون بها . وصيتهم عمل الخيرات وكثرة التصدق وسرعة العطاء ليجمعوا لانفسهم كنزاً ثميناً يكسبهم الحياة الأبدية . وصيتهم ان لا يحبوا الذهب لجمعه فان هذا منشأ كل المضرات واذا كثرت ثروة احدهم لا يتكل عليها ولا يكثر حبه لها . وصيتهم ان لا يجمعوا فى الدنيا مالاً تقرضه الديدان اويأكله الصدأ اوتنشله اللصوص بل يجمعون فى السماء كنزاً لا يخافون عليه من شئ فانهم سيكونون حيث يوجد ذلك الكنز

في الرياضة

من أمثال الانجليز « ان الصبي الذى يرهق على العمل ويحرم من الرياضة يصير أحمق » فاذا بقى بالمنزل دائبا على العمل رهفت صحته حتى اذا ما كبر صار ضعيفاً . وليست الالعاب بمضيعة للزمن بل لها فوائد عظمى فهى التى تكسب الجسم نمواً وتقوى على الاخص عضلات الأذرع والصدر التى تألم وتتعب فى كثير من أعمالنا وهى التى تحفظ الصحة وتكسب الانسان إقداماً على العمل وتعوّده الاتحاد وعدم التمسك بسفاسف الامور وتجعله لا يغترّ بمزاياه وتثبت فيه فضيلة الأمانة فى

الأعمال . وقصارى القول هى التى تمنح الانسان الصحة الأدبية والطبيعية مع الجلد والتصبر على المتاعب وإخضاع النفس والبشاشة وكثير من الفضائل التى لا تكتسب من الكتب . ولقد أصاب الدوق دى ولانتون حيث قال « ان اكتساب واقعة واترلو كان فى فسحة ميدان إيتون » فان أفيد ما تتلقاه ابناؤنا فى المدارس العظمى هو ما ترتاض به نفوسهم . انما يجب ان يكون اللعب تفكهة للانسان ورياضة لا شغلاً له شاغلاً

وأذكرهنا لبيان فائدة اللعب الصحية رأى اثنين من أعاظم حجج الرجال فقد قال السير جمس باجيت « ان للألعاب تأثيراً ادبياً مفيداً فى اعمالنا اليومية لانها توحِّد وجهة الرجال والشبان وتعلمهم واجبات المعاشرة وتبث فى نفوسهم روح التعاون والتعاضد التى هى من اسمى أسباب النجاح فى الحياة . كما ان اللعب يعود الانسان بل يطبعه على الحرية التى يخجل الجميع من حبسها مهما كانت الفائدة التى تعود منها ويكسب من اعتاد الامانة فيه فضيلة الصدق ومن حاز فيه دقيق الاحساس الشريف معرفة احتقار دنىء الوسائط التى ان لم يعاقب القانون عليها فان الاحساس يمقتها »

وقال الاستاذ ميخائيل فوستر سكرتير الجمعية الملوكية فى احدى محادثاته « انما يحدث التعب من المخ حتى فى الاعمال التى تستدعى اجهاد العضلات ولا تخفى صعوبة ما يحل بالمخ من التعب غير الناشئ عن العضلات . ومن هنا نعلم ان الشغل العقلى كالجسمى مصحوب بتغييرات كيماوية تختلف عن بعضها فى بعض الوجوه ولكنها واحدة فى المخ والعضلات وان تأثير المادة العصبية الشديد يعادل عدم وفرة تلك

التغييرات في المخ بل يزيد عنه » واذا كان ضرورياً لحياة العضلات من دورة دم نقي لتجديد قواها وتخليتها من المحصولات المختنقة فضروري للمخ ايضاً من تلك الدورة وأعظم مؤثر ضد هذا التسمم هو انهاض قوة الأجزاء المحصلة من الاجزاء الخادمة لا تكثير قوى المخ ·

وقد تشربت كلمة الصيد في البر والبحر معنى الرياضة التي كانت تشمل جميع انواع اللعب وانها لمن اسمى ما ترتاح اليه النفس حتى ان الذين لم يعتادوها يشعرون بشديد ميل لعملها وهو ميل موروث عن اجدادنا الذين كانوا يعيشون في هذه الرياضة ويتعيشون منها ولو انهم تغالوا في مدحها الى حد اعتبارها سبباً للسعادة في الآخرة

ولا تخفى ضرورة الماء النقي للشرب وضرورة الهواء ليست باقل اذ لا شيء أبدع منه فهو الذي يخترق جسمنا بأكمله ويغطيه بمادة لطيفة لا نشعر بها وهو ذو القدرة العظيمة الذي يحمل السفن على سطح الماء ويأتي بصفائه من واسع البحار وعالي الجبال الى داخل المدن وهو الذي يدني من آذاننا نغمات الطبيعة ويسمعنا صوت من نحب وهو المخزن الفسيح للأمطار التي تروى الارض الملطف لحرارة النهار وبرودة الليل وهو الذي يكوّر فوق رؤوسنا هذه القبة السماوية الفاخرة ويملأ بالضياء سماء الصباح والمساء وهو لطيف جداً كثير النفع حاز لطفاً شهياً نقياً رقيقاً ليناً يعلمنا كيف كان أريل[1] ذا رقة ولطف وتأثير شديد في النفوس ونتكلم احياناً عن رداءة الطقس وكما قال ريسكان «ليس من طقس رديء

(١) Ariel كان معبود بعض قبائل العرب

وانما تختلف الطقوس فى الجودة » فنها ما هو ردىء للزرع مثلاً ولكن جميعها موافق للانسان فان حرارة الشمس مفيدة وغزير المطر مرطب والرياح مبهجة والثلوج منعشة

وما كل راحة تعد كسلاً فاذا مكث انسان مطروحاً على بساط خضرة تحت الاشجار فى فصل الصيف يسمع خرير الماء ويرى السحاب الابيض يمر فوقه فى السماء لا يعد وقته ضائعاً ابداً

وضرورى لصحة العقل والجسم من الهواء الطلق لانه لم يخلق عبثاً الا ترى من ذلك استعداد الطبيعة لأن تودعنا بعض غوامض اسرار ولا تضنّ علينا بها ؟

ان فى رؤية الأرض والسماء والحقول والغابات والجبال والنهيرات والبحيرات والبحار لدروس مفيدة نتعلم منها مالا نتعلمه من الكتب او غيرها فاذا ذهبت للخلاء ومكثت بجانب عين ماء تجرى او قطفت ازهاراً من بستان او جمعت احجاراً من مناجم او قوقعات ونباتات من شاطئ بحر او لعبت الكرة والصولجان او جريت شوطاً فى فسيح الفضاء وراء كرة قدم او تمتعت كيفما شئت بمحاسن الطبيعة لا بد ان تتقدم صحتك وتذهب شواغلك او تقلّ على الاقل لان سكون الطبيعة يرطب الجسم ويقويه ويبهج العقل ويفرحه

ولكن الحياة التى تقضى فى المسرات والفسح تكون معجرفة رديئة فلا يجب ان يكون اللعب مشغوليتنا فى الحياة كما لا يجب اهمال التمتع به باعتدال

وما هي موارد الفسحة وما ينشأ عنها من السرور ؟

يوجد سرور حقيقي وآخر غير حقيقي وقد سأل أفلاطون سوقراط عن السرور الحقيقي فاجاب « انه ما كان موضوعة الألوان والصور الجميلة واغلب ما يتولد من روائح واصوات بحيث لا يؤثر الحرمان منه على الانسان ولا يؤلمه ويكون التمتع به مشفوعا بتأثير لطيف لا يشوبه أدنى ألم » وقد تأتينا حواسنا ببعض السرور الحقيقي ولكنها لا تأتينا باسمى درجاته وقد ورد في الفيليب[١] « ان الفرح والسرور والابتهاج وما أشبهه كلها اسباب خير المخلوقات » ولكني ارى عكس ذلك فان الحكمة والذكاء والذاكرة وكل ما كان من هذا القبيل كالفكر الراجح والاستدلال الصحيح أحسن واحق بالمدح من المسرات عند من حاز تلك الفضائل بل عند من يحصل على بعضها من أهل هذا العصر او المستقبل .

ولا تدخل اسباب المسرات الحقيقية تحت حصر فمنها الاهل والخلان ولطيف المحادثة ونفيس الكتب والموسيقى والشعر والصناعة والتمرين والراحة وكل مناظر الطبيعة الجميلة والصيف والشتاء والصباح والمساء والنهار والليل والشمس والقمر والزوابع والحقول والغابات والانهار والبحيرات والبحار والحيوانات والنباتات والاشجار والازهار والاوراق والاثمار الى آخر ما يحتاج ذكره ضخم المجلدات

فاذا صعب عليك الحصول على السرور فلا تنسب الخطأ الا اليك لان الجميع قادر على التمتع به بالرغم عن قلة عدد الاكتشافات والساعة

(١) Philèbe مجموع مناقشات افلاطون الفيلسوف

التي تقضى فى محادثة مفيدة تعد من أشهى مسرّات الحياة لانها تقوّى الجسم والعقل معاً .

وقد تكلم هيرّيك عما يجب عليه من عظيم الشكر الى بنجنسن(١) ووصف مجلس الأكل عنده فقال «كانت مجالسنا مجال شريف المسرات بحيث كنا عند سماع بيت شعر ننسى لذيذ المآكل والمشارب» ولما كان جونسون(٢) يريد وصف ليلة سرور يقول « لقد تسامرنا طويلاً » وحقيقة فانى كنت أستفيد فى كل ساعة أمضيتها فى محادثة داروين او ليل اوكنجسلى اوريسكان او هوكسلى او تندال اكثر من وجودى ذلك الوقت فى الهواء الطلق

ومعرفة المحادثة من اعظم الامور التى لم يتساوَ فيها نصاب الناس فقد عرفت رجالاً أفاضل يحبون الافادة ويصعب جداً على الانسان ان يستفيد منهم شيئاً والمحادث النبيه مقبول أينما حلّ ولكن فن المحادثة يستلزم كغيره من الفنون كثرة البحث والتمرين : قال السير تيمپل « يلزم لحسن المحادثة الاعتناء بالحقيقة اولاً والتمييز ثانياً والبشاشة ثالثاً والعقل رابعاً » وفى قدرة الجميع الحصول على الثلاثة امور الاول على الاقل .

والمحادثات من وسائل التعلم فكثير من الناس تعلم منها اكثر من نصف معلوماته ومن يسأل كثيراً يعلم كثيراً ويكون على العموم محبوباً انما يلزم لذلك انتخاب الاسئلة مما يليق بالعرض بين عقول من يسألون

(١) Ben Johnson من أعظم شعراء انجلترا وروائيهم (١٥٧٤—١٦٣٧)

(٢) Johnson من مشاهير بلغاء انجلترا (١٧٠٩ — ١٧٨٤)

لاستمالتهم الى رغبة الحديث والحصول على الفائدة المرغوبة والاطلاع على صائب افكارهم

وانا لا نربي في اولادنا ولا في انفسنا التأثر من اطيف الاشياء مع انه سبب سرور حقيقي عام نجدهُ في كل وقت ولا نتكلف من اجله شيئاً . فمنا من يجد سروره في رؤية قرية واشجار وفواكه وازهار وزرقة السماء وبياض السحاب وبريق البحر ولون البرك وجريان الانهار والظلال التي تعلو الحشائش المرتفعة والقمر والنجوم والليل والنهار . ومنا عدد عظيم ينظر كل ذلك ولا يتأثر فلا فائدة عنده في ان يضيء القمر والنجوم ولا سرور له في رؤية الطيور والحشرات والاشجار والنهيرات والبحيرات ونور الشمس مع ان ذلك مفيد لان الجسم كما قال سپنسر (١) يأخذ شكله من النفس والنفس هي الشكل وهي التي تكوّن الجسم وقال آخر « ان في الالوان الصناعية بعض ما يكفي لانماء قليل عجبنا ولكنها لا تكفي لتكسبنا سروراً كالذي يداخلنا من مشاهدة إكليل السحاب المتقطع المحتجب في ظلام الليل او من رؤية جمال ريشة بطة وحشية » وقال ريسكان « ان العين لتقرّ سروراً من رؤية جمال نور النهار عند البزوغ ووقت الغروب او قضبان السحاب الحمراء التي تضيء كنار تنذرنا من سماء كساها مغيب الشمس ثوب الخضار حيث تظهر الارض للعين محاطة بفاخر الالوان والشمس في غروبها بالغة من جمال المنظر ما يجعلنا نتوهم ان ابواب السماء قد فتحت امامنا »

(١) Herbert Spencer من فلاسفة الانجليز ولد سنة ١٨٢٠

واذا وجدت بنو اسرائيل في المنّ والسلوى كل طعم اشتهته نفوسهم كما قالت شرّاح التلمود فكلٌّ منا يمكنه ان يجد في الطبيعة ما يشتهيه من عظيم المسرّات

واني ما سعيت في حصر انواع المسرات الحقيقية الطاهرة ولكنها ما دامت كثيرة العدد فلماذا نبحث عن المسرات المفسدة للصحة او المشكوك في امرها ؟ فلنتق الله في انفسنا ونتمتع بما وهبنا به الحكيم من طيب المسرات ؛ واذا توهمنا ان لها حداً تنتهي عنده فلنسر معها اليه وننظر بعد فيمَ نستعمل ما يبقى لنا من العمر .

ومن مارس الحياة وظنّ انه عرف الدنيا فقد أخطأ فما معرفتنا للحقائق بأكثر مما يعرفه فلاح تعظه الحوادث التي تمر في قريته . والحياة التي تقضى في الاعجاب بالنفس ويسميها البعض العيش في السرور تشبه دنيء بالسعادة ومن يتبعون تيارها ثم يتأوهون منها ويشكون من الدنيا هم الاحق بالذم وحدهم : قال ڤوڤنارج(١) « متى انهكت اللذات قوانا نظن اننا قد استنفدناها » : وقال ميسيه(١) « قد اتبعت في شبابي هوى النفس ولما وصلت نصف الطريق ألمّ بي الضنك فرجعت » فيالهذا من اعتراف محزن اذ لو كان سلك في عمله سبيل الحكمة لأمكنه أن ينظر الماضي بالشكر والمستقبل بعين الامل

---

(١) Marquis de Vauvenargues من مشاهير ادباء فرنسا

(١) Alfred de Musset من شعراء فرنسا ألف جملة روايات شهيرة (١٨١٠ — ١٨٥٧)

٥

في الصحة

لقد أعطت شروط حياتنا الحاضرة أهمية خصوصية للصحة فان الاوائل كانوا يعيشون فى خالص هواء البادية ويشتغلون بالزراعة اكثر منا الآن . اما نحن فتجمعون فى المدن ونشتغل كثيراً فى المنازل والحوانيت والمصانع ولذا صارت حياتنا حضرية تضعف الاعضاء وتستلزم قوة اعصاب ومخ اكثر من غيرها

وانه ليؤسف كثيراً على ما صارت اليه صحة اهل هذا العصر من الضعف وعلى حالة الاصفرار والفتور المستولية على من نعثر به من الرجال والنساء فى حارات الفقراء وعلى فقد القوة الحيوية منهم !

وقد تكون الاحتياطات الصحية احياناً خطرة ولكنها فى الغالب تحيي المرضى وتزيل الضعف والآلام التى تنشأ عن كثير من الامراض . وقد اهتمّ كبار رجال الحكومات بأمر الصحة من عهد بعيد وعرف الكل اهمية حكمة (ان العقل السليم فى الجسم السليم(١)) وان الاعتناء بالصحة من اقدس الواجبات : قال كنجسليْ عن قدماء اليونانيين « انهم كانوا يعتبرون التربية الجسمية كالعقلية علماً يدرس حتى ان نساءهم كنّ يشتركن معهم فى الالعاب اللطيفة والعاب الفروسية ولذلك حفظن فى اجسامهن قوة اكسبتهنّ جمالاً يضرب به المثل الى الآن » . وقد ظهر

(١) Mens sana in corpore sano

لنا ان المصريين كانوا أعلى حكمة باعتنائهم بالتربية الجسمية ممن سخروا بهم من اهل القرون الوسطى .

وليس من الفضيلة فى شىء ان يلبس الانسان رث الثياب ويعيش فى القاذورات وقد ورد فى الامثال «ان النظافة تعادل الايمان» وما اظهره الطب من حديث الاكتشافات يؤيد لنا صحة هذا المثل ويبين لنا حكمته فقد تحققنا الآن ان كثيراً من الامراض كالكوليرا والجدرى تنشأ عن جراثيم تحل بالجسم فلذا صار امر النظافة ضرورياً فى المنازل التى نسكنها والملابس التى نكتسى بها والماء الذى نشربه والهواء الذى نستنشقهُ

ويا لجسم الانسان من معجزة ! تفكر قليلاً فى كنز المعلومات الفسيح المتجمع فى المخ ! وانظر لسرعة ودقة اطاعة العضلات تأثيرات الإرادة ! فالجلد نسيج ذو لطف وتركيب عجيبين مكون من ملايين من الخلايا وحاوٍ لكيلومترات من العروق والمجارى الدقيقة والاعصاب وغيرها . وحيث انه دائم التجدد فيلزم لتتميم وظيفته الاعتناء به وعدم اقتصاد الماء فى تنظيفه مع دلكه بالفرشة فان ذلك ضرورى له كضرورته للشعر . ويلزم للتمكن من نظام وظيفة هذا التركيب العجيب تمرين جميع اجزائه ومن اهمل فى ذلك عرض نفسه لكثير من الامراض : قال ميلتون عند عيادته لهوبسون « ان الكسل اعظم مرض له » وقال سنيك « لقد اضعفت زخرفة مدينة كانو نفس أنيبال الذى لم تقهره ثلوج جبال الألب فانه بعد ان انتصر بالعِدد غلبته الملاهى »

وقد تهيئ لنا الحواس بعض لذات ولكن اتباع اهوائها يؤدى بنا

الى جميع متاعب الحياة ومهاوي التهلكات كبنات البحر التي نسمع عنها فى الخرافات(١)

وقد سبب عدم الاعتناء فى الاغذية كثيراً من الامراض فصارت كلمة « مشروب » مرادفة للفظ « كؤل » مصيبة اهل الشمال الدهماء . نعم ان الخمور فى بعض حين دواء ثمين ولكن الميل اليها والافراط فيها بلغ من الشدة ما جعلها منشأ نصف الجنايات والمصائب . وانا لنعجب كيف يقدم المرء عليها مع علمه بذلك ويشرب من غير صافى الماء هل سمعت أذناه او علم انه نشأ عن الماء جناية ! انى اعبر عن الكؤل بالمصائب المجمعة فى الزجاجات فانه رأس الكبائر ومن امثال اليهود قولهم « اذا اراد الشيطان دخول مكان ليس فى استطاعته طرقه يبعث فيه بالخمور أولاً » وقال بلين(٢) ان الخمر ترعش الايدى وتسيل العيون وتزعج الليالى وتسمم الانفاس وتعدم الذاكرة » وقال السير رالى(٣) « من يعاقر الخمور يفقد ثقة الناس لانه يكون غير كفؤ لأن يصون سراً بل يكون مجنوناً دون الجماد مرتبة فاذا جنحت اليه فاستعد لأن تهزأ بك اولادك واصحابك

(١) هي من خرافات الاقدمين وهى اجسام نصفها امرأة والنصف الآخر سمك سكنت شواطئ ايطاليا وكانت تجذب بنغماتها الملاحين اليها وتغرقهم فاما مر عليها عيلوس ولم يجب نغماتها أهلكت نفسها حنقاً منه

(٢) Pline l'Ancien طبيبي رومانى شهير مات عند انفجار بركان فيزيف سنة ٧٩ ق . م .

(٣) Sir W. Raleigh من مشاهير كتاب الانجليز وكان مشتغلاً بالسياسة وأعمال الحكومة والبحارة فى آن واحد (١٥٥٢—٦١٨ .)

وزوجتك » ومن ملح شكسبير قوله فى ذلك « أضرورى للانسان ان يضع فى فمه عدوًّا يسلبهُ العقل ويصيره بهيماً بينما يكون فى سرور؟ وكيف انه بسبب كوننا من بنى الانسان نعمل على ان نكون حمقى بل بهائم ؟ استغفر الله انى بهذا التشبيه أحط من قدر البهائم ! » وما اسمى ما يكسبه الاعتدال فقد قال شكسبير « انى لا ازال بالرغم عن تقدم سنى قوىّ الجسم نشيطه لانى لم اتناول فى شبيبتى مسكراً ولا شراباً آخر يحرق دمي فانا فى شيخوختى اشبه برداً قارساً كثير الثلوج بيد أنه صحى »

ومما يستغرب منه ان الانجيل لم يكثر فى مقت الخمر ولعلّ ذلك كان لقلة انتشارها فى البلاد الحارة عما فى بلادنا

وفى امثال سيدنا سليمان قوله « ويسألونك عن الذين يولولون ويتضاربون ويوقظون الفتن وينشئون المصائب قل هم السكيرون الذين يعاقرون الخمور الرديئة . فلا يغرنك احمرار لون الخمر عند ما تبهر اللب وهى مفرغة فى الكأس سهلة السيولة فانها كالثعبان الذى يعض من الخلف او الحية التى تلدغ فى الخفاء »

ولكنا لا نقطع الامل فى تقليل وطأة الخمور فقد انصرفت بعض الافكار الى لذة التمتع بما يسرّ العقل كالموسيقى التى سهل الحصول عليها وعلى سماعها وكالكتب ولطيف الصور والراحة العامة الى غير ذلك من الاسباب التى تساعد كثيراً على الاعتدال .

وتضر كثرة الاكل وتسعة اعشار الناس يقعون فى هذا الخطأ . ولا تضر اكلة كبيرة من وقت لآخر وانما الذى يضرّ ويمرض هو

التعود على كثرة الأكل فانه سهل على الجميع ان يأكلوا كثيراً ولكن الصعوبة كلها في ان يكتفي الانسان بالقليل فاتخذ الاعتدال قاعدة أساسية لك في الحياة لتبرهن على ثبات عقلك وقوة حزمك ولا تطل المكث على المائدة فان الحكمة في ان ينتهي الآكل من الأكل وعنده بعض الجوع . ولا تثقل المعدة بكثرة الأكل فان من يفعل ذلك لا يستطيع التعقل ولا يستريح قلبه . واسترح قليلاً بعد الغذاء في الظهر فهذا محمود انما لا تضيع في الراحة ما بين الاكلتين وليكن أكلك لأن تعيش لا عيشك لأن تأكل فهذه خير نصيحة تهدى اليك .

وكثير يشكون سوء الهضم حتى صار عددهم أضعاف من ألمت بهم أمراض اخرى وقد قال بيكون « توقَّ كل تغيير فجائي يحدث في العناصر المهمة مما اعتدت أكله فاذا اضطررت الى الاكل منه فكل بحزم واحتراس لأن من يحفظ عقله في هدو وقت الاكل وبعده ووقت النوم يحق له الامل في طويل الحياة »

ولما كانت حياتنا كما قدمنا حضرية فكل وقت نمضيه في استنشاق جيد الهواء لا يكون ضائعاً بل يكون اعظم وقت يعد في الحياة ويطيل في العمر ومن امثال قدماء اليونان قولهم « ان الصحة في الهواء[1] » لانه مهما أمضى الانسان من وقت في الخلاء لا يزيد الهواء الذي يستنشقه عن حاجته

والماء النقي ضروري للصحة ايضاً فاستعمله بوفرة واعتن بنظافة الفم

(١) in aere salus

التي يهملها البعض فان ذلك مما يزيد في راحتك واعلم ان العوائد في الغذاء تؤثر على الصحة أكثر من تأثير الادوية التي كان القدماء يستعينون بها على الامراض . نعم ان الجمعية الملوكية أقرت ايضاً على استعمالها ووافقها بيكون ولكن لوك[1] أثبت قليل فائدتها فقال « إننا اذا اتبعنا القوانين الصحية قلّ احتياجنا لشراء الادوية » . فاطلق للطبيعة عنان حريتها وفوّض أمرها اليها وكما قال نابليون « لا تتعب المبدأ الحيوى بل اعطه فرصة المدافعة عن نفسه فانه بذلك يزيد في القوة عما تنتجه الادوية »

ووفرة الهواء والماء والانتظام في المأكل قاعدة ناجحة لنوال الصحة والقوة وحفظ نشاط الشباب حتى المشيب وليست الصحة صحة الجسم وحده فقد قال الدكتور ريشاردسون « ان الغضب والحزن والخوف لمن المؤثرات المضرة بالصحة لانها تضعف قوتنا الحيوية . اما الانشراح والبشاشة والسكون فانها من الاسباب المفيدة لها » ولهذا أوجب ليكيرج المتشرع اليوناني القديم على جميع اهالي اسبارطه ان يضعوا في غرف الاكل تماثيل صغيرة لاله الضحك

ومتى انحرفت صحة أحدنا اثر اقلّ شيء على مجموعه العصبي وصار اقلّ ألم يلم به عظيماً يستوجب الراحة واستنشاق خالص الهواء

ويقول البعض ان ارهاق الصبيان على العمل وكثرة الشغل يقتلانهم ولكن الشغل لم يقتل احداً وانما منشأ ذلك كله آلام وضيق وهموم تحيق

(١) Locke فيلسوف انجليزى مؤلف كتاب بحث في الادراك الانساني (١٦٣٢—١٧٠٤)

بالانسان فقد أفقد الكسل والشره والانهماك فى اللذات من رجال لم يقتل الكد اكثر منهم . لان المخ كالعضلات يحتاج للتمرين فاذا رتبت أوقاتك ولم تتجاوز فى شغلك حدّ طاقتك تقدمت صحتك ولم يمسسك ضرر

وسيأتى لكل منا وقت يرى فيه الارق وانه لمضر حيث يشعر الانسان بمصيبة دائمة وصعوبات يظهر له انها لا تطاق ويودّ ان يتغلب عليها ويتخيل له ان العقل لا يقبل رؤية ما يذهب شجنه ليتفرغ للاشتغال بكل ما يحزن او ينقص الحياة . ولكن الارق لم يقتل احداً فلا تيأس من زواله انما احترس من تناول منوّم فان الخطر كل الخطر فى ذلك ولا تطل المكث فى المنزل وأطل منه خارجه ولا تشغل فكرك بما يزيد أرقك وثق حينئذٍ بأنك ستنام . وكفاك ان لم يطل أرقك ان تعرف نعمة النوم التى لا تقوّم ولا يقدرها احد حق قدرها

وقد ينشأ عن العقل كثير امراض فهلاَّ أجاب الاطباء الذين يشتغلون بمعالجة ما يظهر من الامراض على سؤال الملك ماكبيت الوارد فى رواية شكسبير : « هل فى الامكان معالجة مرض العقل او ازالة شجن تأصل فى الذاكرة او ملل حلّ بالفكر ؟ كل هذا لا يعمل فيه الطب وقد يزول بنسيان يكون كالدرياق يطهر ما بباطن المرء من المواد المضرة المتراكمة على قلبه »

وليست الصحة وحدها من أهم شروط السعادة ولكنها ضرورية للعمل ولا يهملها الا كل احمق جاهل

واذا كلف الانسان بعمل فوق طاقته يستحيل عليه اتقانه لأن اجهاد النفس وارهاقها مضر فمن استشعر من نفسه بشيء من ذلك وجبت عليه الاستراحة والسكون والا كان عمله غير متقن تظهر فيه دلائل الغيظ او العجز وخصوصاً اذا أكره احد على الشغل مع الغير فانه يغلب عدم الاتفاق وحصول الشقاق . ويمكنك التحقق من ذلك بان تحاول وانت على هذه الحال عمل اىّ شيء فانك تجد يدك قد ارتعشت وخرجت عن طاعة ارادتك . ولا سبب لذلك غير ضعف في الجسم والاعصاب .

فيلزمك ان تستخلص لنفسك سروراً من كل عمل تقوم به وان تشتغل بترتيب ونشاط بغير استمرار وان لا تهمل الغذاء والراحة ولا التمرين والعطلة

وقد تكون التأثيرات المضعفة لرهيف الصحة شديدة خصوصاً لمن وقعت عليه مسؤلية ومع هذا فان من الناس من رهفت صحتهم بغير ما خطأ منهم ولكن الطبيعة عوّضتهم عن ضعف الجسم نوراً في العقل وسروراً في الفؤاد فقد عرفنا اناساً ابتلوا بضعف مستمر وكانوا في البشاشة والسرور نموذجاً لذوى الصحة الجيدة بل كانت حياتهم كأنها تجد في ذلك الضعف نزاهة وجمالا

٦

في التربية الاهلية

علم العقلاء من عهد بعيد أهمية التربية فقد ورد في مجموع آداب

الهندبين[١] « ان العلم والمعرفة لأنفس كنز يحصل عليه الانسان فلا يخاف عليه ان يسرق او يسلب او يعدم » وقال افلاطون الحكيم « ان التربية لأجمل ما تقتنيه أعاظم الرجال » وقال مونتينى « الجهل ابو الشقاء » وقال ڤولتير[٢] « ان العلم لأجل ما يتصدق به على الغير » وقال احد ادباء الفرنساويين « السلطة مع الجهل شديدة الخطر » ولقد صدق من قال ان العلم يضمن الحياة ويسهل اسباب المعيشة وان الجاهل فى عداد الاموات ولو كان حياً . وقال بترارك «يجب تفضيل حب التعلم على كل حب غيره » وقال شكسپير « الجهل سخط من الله والعلم سلم الجنة » وقال سيدنا سليمان « ياسعادة من يعرف حكمة الاشياء ويقوي بها ذكاءه فانه يكسب منها اكثر مما يربحه من المتاجرة فى الفضة ويستخلص بها من الفوائد ما تفوق قيمته نقى الذهب وغالى الجواهر ففى يمناها الحياة وفى يسراها الغنى والفخار وطرقها مألوفة توصل للنجاح » الى ان قال فى موضع آخر « الحكمة رأس شريف الخصال فاجعلها مع التبصر فى عواقب الامور عنوان ما تحصل عليه من الفضائل »

وكانوا يقولون فى الزمن السالف بعدم فائدة العلم فلم يصادف هذا القول استحساناً الآن الا فيما يختص بالبنات فقد يرجح ما فى المثلين الالمانيين الآتيين « يجب ان تكون خزانة كتب البنت دولابها» و «يجب

---

(١) Hitopadésa

(٢) Voltaire شاعر وناثر فرنساوى شهير له مؤلفات عديدة منها كتاب عصر لويس الرابع عشر وتاريخ شارل الثانى عشر (١٦٩٤ — ١٧٧٨)

ان تحفظ البنات بين الاربعة اناجيل او بين اربع حيطان » . فانهم كانوا يقصرون التعليم على القسس والرهبان وحدهم ويقولون بعدم حاجة افراد الامة واشرافها اليه حتى ان بعض اعاظم الرجال حكمة ونزاهة كالدكتور جونسون قال « اذا تعلم الجميع الكتابة والقراءة فمن الذى يشتغل بالاعمال اليدوية ؟ » ولكنه اتى بعد ذلك حين عرفت فيه ضرورة التربية ولو انهم اوصوا بالاحتراس من ان تفوق درجة التربية حالة الاولاد وقالوا بكفاية تعلم الفقراء الكتابة والقراءة ثم عمدوا ذلك على جميع انواع الاشغال فقال هازليت « يكتفى فى تعليم من يحضرون للاعمال التجارية على التعليم الابتدائى » ثم قال « ان كسب المال سهل على الجميع اذا لم يلهم عنه امر آخر » . ثم اصبحنا الآن نحض على تعليم الصناع ليكونوا من اهم الرجال مهارة ودقة :

قال ڤيكتور هيجو (١) « من يفتح مدرسة يقفل سجناً » وقال احد رجال حكومة سويسرا « يولد عدد عظيم من اولادنا للعيش فى الفاقة ولكنه لا ينبغى ان نتركهم يعيشون فريسة الجهل »

وعام ١٨٧٠ الذى فيه صار التعليم اجبارياً بانجلترا عامٌ مشهود فى تاريخها فقد كان عدد تلامذة المدارس الابتدائية فى ذلك العام مليوناً واربعمائة الف وصار فى سنة ١٨٩٦ خمسة ملايين . ونتج عن ذلك :

أن كان عدد الجناة آخذاً فى النموّ الى سنة ١٨٧٨ حيث وصل ٢٠٨٠٠

---

(١) Victor Hugo من مشاهير شعراء فرنسا ورواتها وله مؤلفات كثيرة (١٨٠٢—١٨٨٥)

فأخذ في الهبوط حتى صار في سنة ١٨٩٦ ١٣٠٠٠ ويتخيل لنا ان النقص بقدر الثلث* ولكنه لو اعتبرنا عدد السكان الآخذ في النموّ عاماً فعاماً نجد ان ذلك النقص اكثر من النصف فان عدد السكان زاد بقدر الثلث ولو كانت نسبة عدد الجناة محفوظة لكان عددهم الآن ٢٨٠٠٠ بدل ١٣٠٠٠ وكانت مصروفات السجون ثمانية ملايين بدل اربعة ملايين التي تصرف الآن

وحصل نقص محسوس في عدد الشبان الذين يرتكبون جنايات فكان عددهم ١٤٠٠٠ في سنة ١٨٥٦ و ١٠٠٠٠ في سنة ١٨٦٠ و ٧٠٠٠ في سنة ١٨٧٠ و ٦٠٠٠ في سنة ١٨٨١ ثم ٥١٠٠ في سبنة ١٨٩٦

وقلّ عدد الفقراء فقد كان في سنة ١٨٧١ ٤٧ في الالف بعد ان كان ٥٢ ثم نزل الى ٢٢ اى الى اقل من النصف فانخفضت معه قيمة مصروفات المساعدات العمومية حيث صارت ثمانية ملايين فقط ولو كان عددهم اليوم عدد الامس لبلغت تلك النفقات ستة عشر مليوناً

وباضافة ما توفر من الصرف على الجناة على ما توفر من الصرف على الفقراء يكون المجموع اثنى عشر مليوناً. ولعمرى ليس هذا بقليل!

ويدعونا احصاء كبير الجنايات الى الاطمئنان فان عدد من حكم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة ٢٨٠٠ من سنة ١٨٦٠ الى ١٨٦٤ ثم اخذ هذا العدد في التنازل حتى انه لم يبلغ في سنة ١٨٩٥ بالرغم عن زيادة عدد السكان سوى ٧٢٧ اى الربع تقريباً

ونتيجة هذا النقص ان ثمانية من سجون الجناة اصبحت غير لازمة

لما أسست من أجله واستعملت فى مآرب اخرى

واثباتاً لعظيم الارتباط بين الجهل والجنايات اذكر هنا ما علمته من الاحصاء فانه يوجد من عدد ١٥٧٠٠٠ المحكوم عليهم ٥٠٠٠ ممن يعرفون القراءة والكتابة نوعاً و ٥٢٠ فقط ممن يمكن القول عنهم انهم متعلمون

وهاك جدول بيان متوسط المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة فى انجلترا وبلاد الغال فى كل خمس سنوات مستخرجا من تقرير السجون عن سنة ١٨٩٣

بيان السنين	المتوسط	عدد السكان فى انجلترا وبلاد الغال
فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٥٩	٢٥٨٩	١٩ ٢٥٧ ٠٠٠
« « « ١٨٦٤	٢٨٠٠	٢٠ ٣٧٠ ٠٠٠
« « « ١٨٦٩	١٩٧٨	٢١ ٦٨١ ٠٠٠
٤ « « ١٨٧٤	١٦٢٢	٢٣ ٠٨٨ ٠٠٠
« « « ١٨٧٩	١٦٣٣	٢٤ ٧٠٠ ٠٠٠
« « « ١٨٨٤	١٤٢٧	٢٦ ٣١٣ ٢٥١
« « « ١٨٨٩	٩٤٥	٢٧ ٨٣٠ ١٧٩
« « « ١٨٩٢	٧٩١	٢٩ ٠٥٥ ٥٥٠

ويظهر لنا جلياً من هذا الجدول مقدار النقص المتوالى فى عدد الاحكام الكبرى ولا تخفى اهمية هذه الارقام خصوصاً اذا اعتبرنا زيادة عدد السكان المتوالية

وارجو ان لا يتهمنى البعض بانى لا اعتبر فى هذا الاحصاء الا الوجهة المالية فانى لم ابينها الا لأقنع من يقولون بزيادة مايصرف فى شؤون التربية وتحتاج هذه الارقام الى ضبط علمى الا انها تفيدنا كثيراً وتوجب

اطمئنان القلوب . ولو بحثنا في اسباب هذه الجنايات لوجدنا القليل منهـا ناشئاً عن العيوب والنزعات التي تتعذر مقاومتها ولكن الكثير منها ناشيء عن الخمور والجهل . ولا تنسب هذه الفوائد الى تعليم قواعد حسن الاخـلاق والنظافة والترتيب في المدارس فقط بل ايضاً الى الاحتراس من الوقوع في المفاسد التي تحصل في الشوارع والاتعاظ بمـا يحيق بالجناة والمتشردين من العقوبات . وهنا موضع السؤال عما اذا كنا قد اهتدينا الى اقوم طريق للتربيـة الاهلية التي تساعدنا على الاجابة عن الاسئلة الثلاثة المهمة الآتية الواجب الاجابة عنها في كل عمل في الحياة (١) هل ما اعمله طيب او رديء (٢) حق ام باطل (٣) جميل او قبيح ؟

من نيف وقرنين كانوا ينصحون الناس بان يبيعوا كتبهم ليشتروا افراناً وان يتركوا موارد الحكمة والفنون الجميلة لكونها لا تفيدهم ويبحثوا عما يقيهم من قارس البرودة وقد عرفنا الآن لزوم ما نبذوه ولكننا لم نؤسس طرق تعليمنا على قوانين الطبيعة اذ ليست التربية في ان يعرف الانسان القراءة والكتابة والعدّ كما ان ادوات الاكل لا تعدّ غذاء

ولطالما اتهمت باني انتقدت انتخاب العلوم المدرسية وليس هذا بصحيح فان اللغة اليونانية واللاتينية لا تزال جزءاً مهماً لكل تعليم ومن العبث اهمالها او الحطّ من قدرها ولكن هاتين اللغتين وحدهما لا تكفيان خصوصاً واننا نمضي كثير وقت في حفظ بعض جمل كانت مستعملة من منذ عشرين قرناً ونبذل جهداً عظيماً في استنتاج قواعد الاجرومية من الموضوعات لدرجة نهمل معها ما احتوته تلك الموضوعات من صائب الافكار وهذا

هو السبب في عدم تمكن الطلبة من التكلم بتلك اللغات . ومما يذهب بفائدة التعليم جعل الطلبة يتكلمون باللغات بنطق مخالف بالمرة لليونانيين والرومانيين بل بخلاف ماتتكلم به الامم الاخرى بما فيها اسكوتلاندا

ولا تربي طريقة تعليمنا تلك اللغات ملكة بلاغتها عندنا مع انها لم تكن الا جزءًا قليلا من التعليم وقد كانت تهتم الاقدمون كثيراً بما يلزم للمعاملة لتتميم التربية وجعل اساسها الميل الفطري المشترك بين جميع الافراد وتبين لنا ذلك ما اشتملته الجملة اللاتينية(١) « يتعلم الادب من المعاملة » ومع ذلك فما كان يعرف شكسبير الا قليلاً من اللاتينية واقل منه من اليونانية ومهما اضيف الى كتب هذه اللغات من الشرح والبيان فانها لا تزال غيركافية لتعليمنا . وعلى العموم كل من يقصر تعليمه على ما في الكتب ولا يرجع الى ما في الطبيعة والعالم ينقصه كثير ولا يكون رجلاً كاملاً . ولهذا فان جزءًا عظيماً من تعليمنا قليل الجدوى وينطبق ذلك على قول جيسس آت تروت(٢) « اننا في تعليمنا كمن يقرأ كتاباً في علم النباتات على ارض قابلة لزراعة الازهار ويؤمل من ذلك ان تزهر »

ولا يكفي ان نحفظ دائماً بل يجب ان نعرف مواضع التجاوز والنسيان وليس التعلم بقصد التخرج محامياً او فقيهاً او جندياً او طبيباً بل لتكون الناس رجالاً : قال ميلتون « انما التربية الشريفة التامة هي التي تساعد الانسان على آداء وظائفه الخصوصية والعمومية بدقة ومهارة

(١) Litterae humanieres

(٢) Guesses at Truth

وعلوّ همة سواءً كان في وقت السلم او الحرب »

وقد تسرعت الفلاسفة في تقريرهم امكان حل كثير من المسائل بما يتداول على الالسنة من ذلك سؤال بليتارك « هل البيضة هي التي اوجدت الدجاجة او الدجاجة هي التي اوجدت البيضة » فانهم اجابوا على هذا السؤال بان الدجاجة هي التي اوجدت البيضة استناداً على انه يقال بيضة دجاجة لا دجاجة بيضة . ومما يبين النقص في تعليمنا ان القليل منا من يستمر في طريق التربية بعد خروجه من المدرسة على ان الانسان يتعلم ما دام فيه نفس الحياة وفي الامثال « عش وتعلم ما عشت »

ولكنه من الضروري الوقوف على طريقة مثلى نتبعها في التعليم وهل نكتفي بما نلتقطه من الجرائد والروايات او نسلك طريقاً يشبه ولو قليلاً طرق التربية المنتظمة القانونية ؟ ذكرت في غير هذا الموضع رأي حجة عما يجب استخلاصه من كل علم . وهنا اذكر رأياً يشابه الاول للاستاذ هيكسلي (١) « يجب ان يكون كل تعليم صحيح كافياً لأن يجعل الشاب الذي لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة قادراً على قراءة وكتابة لسان وطنه بسهولة ودقة مع بعض البلاغة التي تستفاد من قراءة كتب المؤلفين وان يعرف باختصار تاريخ وقوانين بلده واهم قوانين الحياة الاجتماعية وان يحصل على الضروري من العلوم الطبيعية والنفسية والحساب والهندسة وان يحوز بعض مبادئ منطقية يكتسبها من التجاريب تطبيقاً على ما يتعلمه من القواعد اما الموسيقى والرسم فتكون له كدواعي سرور لا شغلاً شاغلا »

(١) Huxley

وقد اصبح الكثير منا يشعر بميله الى ما اوضحه جون هنتر(١) في قوله « كنت اودّ في شبابي ان اعلم كل شيء عن السحاب والحشائش واعرف السبب في تغيير اوراق الاشجار في الخريف وألاحظ النملة والطير والضفدع ودود القز في الشرنقة وكنت ألحّ كثيراً في السؤال من الناس عن كل شيء جهلوه او لم يعتنوا به » وقال لوك في كتاب شرح التربية « لا اقول عن الكتب الا امراً واحداً هو ان اقتناءها ليس بالجزء المهم في تعليمنا واللازم ان يضم اليه امران يساعدان كثيراً وهما التفكر والمناقشة . فان المطالعة واسطة لجميع المواد الاولية التي قد يحذف منها بعضها لعدم فائدته اما التفكر فوظيفته فحص ما بقي من هذه المواد وتأليفها مع بعضها . فان الكتب كمخزن ادوات العمارة ووظيفة التفكر انتقاء الاخشاب وتنظيم الاحجار ثم وضعها وتشييد البناء ووظيفة المناقشة مع الصاحب (لان المناقشة مع غيره لا تفيد) البحث في تركيب ذلك البناء والتفرج على ما فيه من الغرف والنظر في الانتظام والتوازن وتوافق الاجزاء والبحث في محاسن وعيوب كل منها . وهذه اعظم وسيلة للوقوف على ما ينقص الانسان ويزيد معلوماته لان المناقشة ترينا ما نجهله من الحقائق وتدني الى فكرنا بعد المطالعة والامعان جليل الفوائد وواضح الحقائق »

---

(١) John Hunter

٧

في التربية الشخصية

وظيفة التربية تحسين العوائد والاخلاق وتبتدئ من سن الطفولية وتترقى في المدرسة وتستمر في النموّ استمرار الحياة سواءً اقر الانسان بذلك او لا . فلا يجب الاقتصار فيها على ما نتعلمه من الصدف بل يجب بذل الجهد في السعي وراء الحصول عليها : قال جيبون[1] « لكل رجل تربيتان واحدة يتعلمها من الغير والثانية يحصل عليها من نفسه » ولا يختلف اثنان فيما لهذه الثانية من عظيم الاهمية لان ما نتعلمه من انفسنا يفيدنا اكثر مما يعلمه لنا الغير وقال لوك « ما نبغ عالم في علم او حصل فيه على مرتبة عالية حقيقية بمجرد اتباعه نصائح معلمه وارشاداته » فمن يجد نفسه غير مميز في فرقته لا ييأس ابداً اذ ليست العقول النيرة هي التي تنجح ضرورة في الاول . نعم ان الاهمال يوجب عظيم الخزي ولكنه لا ينبغي لمن لا يتيسر له النجاح ان يقطع الامل من الاجتهاد في المستقبل او يبني على عدم امكانه في الشباب ضياع المستقبل لان من يبذل الجهد في الحصول على امر ويثبت في عزيمته لا بدّ له من النجاح وكثير ممن امتازوا في صغرهم لم يبلغوا شأواً في الحياة وغير واحد من اعاظم الرجال رغماً عن عدم اشتهارهم في المدارس بلغوا اسمى درجات النجاح بعد . فاذ ولنتون ونابليون

(١) Gibbon من مشاهير مؤرخي الانجليز صاحب كتاب تاريخ سقوط مملكة الرومانيين (١٧٣٧ — ١٧٩٤)

لم يكونا في صغرهما ممن يرجى فيهم عظيم التقدم وكذلك كان نيوتون وسويفت وكلايف وسيروالترسكوت شريدان وغيرهم من مشاهير الرجال

ويقول البعض عن توقد القريحة « انه ميل فطرى ينشأ عن كثرة الاشتغال » ويقرب ذلك من الحقيقة فقد قال ليلى « اذا لم يساعد الطبع فكل عمل لا يفيد كما لا يفيد الطبع بغير عمل » ولكننا نجد من جهة اخرى اولاداً نبهاء متقدمين لا ينجحون لضعف فى الصحة او لنقص فى الالتفات او العزيمة فمثل هؤلاء كشجرة تحمل زهراً مزدوجاً بدون ثمر وعاقبتهم تكون فى الغالب وخيمة فى حين اننا نرى اولاداً اقل منهم ذكاءً ولكنهم اكثرمنهم التفاتاً ورقة فى الطبع صعد نجمهم وعلاقدرهم وتقدمت بهم بلادهم

وقد يشك البعض فى قدرالعلم : قال الدكتور ارنولد « يخلط الكثير بين السذاجة والجهل مع انه ينبغي تمييزهما اذ لو جردنا انساناً من معلوماته لم يصر ساذج العقل فقط بل بهيماً من شرّ بهائم الخليقة واكثرها ضرراً » واثبت فى موضع آخر «انه اذا اهمل الناس المرشد الامين فى الحياة يصيرون ارقاء شهواتهم ويقعون فى شرك المفاسد » فهم بذلك يضمون الى جهل الطفولية نقائص الرجال . ومن حسنت تربيته فى المدرسة لا يعوقه شيء بعد فان الغاية من التربية الصحيحة هى كما قال سيدنا سليمان « اظهار دلائل الحكمة والمعرفة والعمل باقوال الحكماء ومألوف العوائد المطابقة لقواعد العدل والحكمة والمساواة وايجاد التمييزبين البسطاء والعلم والمعرفة عند الشبان » وقال تورو « ينحرف الرجل عن طريقه لالتقاط درهم

ولكنه يهمل الاقوال الذهبية التى قررتها الحكماء من قديم وحققتها الايام والقرون » وفى مثل فرنساوى «ليتنا نعلم فى الشباب لنقدر فى الشيخوخة» والتربية الحسنة هى التى تكسبنا المعرفة فى الشباب والقوة فى الشيخوخة . ولكنه لا ينبغى تجربة كل امر لنعلمه فقد قال فرانكلن « ان التجاريب مدرسة تستنزف طائل المصرف ولا يتعلم فيها الا الحمقى »

والدقة فى الابتداء من اعظم ما يلزم للنجاح فى الحياة ومن يحسن البداية يسهل عليه النجاح ومن يهملها يصادف كثير اتعاب

وانقش فى مخيلتك كل ما تجده حسناً فى الكتب واحوال الرجال ولا تخجل من كونك اقل علماً من احد اصحابك فانما يكون الخجل من جهلنا ما كان فى قدرتنا معرفته . ولا تقتصر التربية على معرفة اللغات وحفظ الوقائع فهذا شيء آخر يخالفها لان العلم يكوّن لنا كنوزاً ننتفع بها فى مقتبل العمر ولكن التربية تغرس اصولاً تأتى باضعاف اضعاف قدرها

ولم تعرف للآن حقيقة مزايا العلم ولو انها قليلة فى جانب الحكمة فقد يقول البعض « ان من يتعلم يعجب بما أوتيه من العلم » و « ان العاقل يخجل من عدم معرفته اكثر مما عنده » وحقيقة فاننا لا نعرف الا قليلا وكل من تعلم يعلم ان ما تعلمه ليس بالكثير

ويخطئ البعض فى قوله « ليست المعارف الا مجموعاً غير منتظم عديم الفائدة وانها فقط مواد تستعملها الحكمة فى التراكيب » لان من لم يعتن بانتقاء تلك المواد والحصول عليها لم يكن ذا معرفة ومهارة . كما انه ظهر فضل كثير من العلوم كان مجهولا فى الزمن الاول : قال كنجسلى « قد

استفدنا من الكهرباء اقتصاد الزمن ومن الكتابة توفير الكلام والحركات ومن القوانين الاجتماعية اقتصاداً في الدرهم ومن القوانين الصحية تحسين الصحة ومن تقوية الفكر تقليل التعب المخي اما ما استفدناه من قوانين النفس فحدّث عنه ولا حرج» وقال سبنسر «يحفظ العلم الحياة ويسهل اسباب العيش ويرشد الى الواجب والسير في طريق الحياة الاجتماعية ويكسب الانسان الفخر ويجعله يستفيد من الصنائع بانواعها وهو ايضاً المنظم للعقل المحيي للادب المرشد للدين» وقال استانلي «ان الميل لمعرفة الحقائق امر محمود ولكنه نادر لاننا ما عرفنا فضائل بعض الاكتشافات العلمية التي عثر عليها العلماء بغير ما قصد منهم سوى الميل لمعرفة الحقيقة او ما نشأ عنها من سعادة بني الانسان الا بعد مضي اجيال من تاريخ ظهورها» وقال سيدنا سليمان «يتأمل العاقل في كل الامور ليزيد قوة حكمته» وحقيقة فان المعلومات التي لا تفيد قليلة جداً وكذلك الاشياء التي يلزم لمعرفتها رؤيتها مرة واحدة فلا توجد صغار امور انما العقول هي الصغيرة

وانا لنأسف كثيراً على عدم وقوفنا على بعض اسماء اعاظم المكتشفين وكنا نودّ معرفتهم لنشكرهم ونعطر بذكرهم ألسنتنا فانهم في الغالب ما قاموا بهذه الخدم الجليلة لغرض شخصي او لرغبة نوال فخر بل لخدمة الانسانية

والالتفات الصحيح والاجتهاد المستمر في كل عمل من اوجب مايلزم لمن يريد التمتع بالحياة لان من لم يجعل لعمله نصيباً وافراً من الالتفات يفقد فيه كثيراً من الوقت

وانه ليحزننا ان نرى المسرّات الادبية لم تزد للآن في سعادة بني

الانسان الا قليلاً مع ان الاصل اليوناني لكلمة مدرسة معناه الراحة والرياضة

ونرى في اصول مذهب الرافضين كثير امور لا يسلم بها العقل انما عندهم بعض ما يحمد (فان المحبة قاعدة لهم والترتيب اساس والنجاح غاية) ثم نرى كما قال إمرسون « كثيراً ممن يعبدون الله يقتصرون على ما علموه عن آبائهم ولم يعتنوا بواجب تمية القوى العقلية »

والانسان وحدة كل شيء وهو الذي يقيس ارتفاع الجبل الشامخ وعمق المحيط وقاعدة حسابنا مؤسسة على عدد الاصابع ومع ذلك فما أضعفهُ وأحوجهُ وما اسمى الدرجات التي يمكنه نوالها ! وهو كما قال پسكال[1] « مخلوق ذو فكر اي انه يتخيل ويحقق يعرف القليل ويجهل الكثير يريد ولا يريد يتصور ويحس[2] » وكما قال عنه في موضع آخر « انه كعود من اضعف المخلوقات الا انه ذو فكر فلا يجب ان ينسلح كل الملأ لكسره » لانه يكفي لقتل الانسان قليل بخار او نقطة ماء ولكنه متى قتل يصير اشرف بكثير ممن قتله لانه عرف انه سيموت وجهل قاتله ذلك. ويلزم لتمام كمال الانسان عقل وقاد وقلب مخلص وحاكمة ثابتة وجسم صحيح لانه يصعب الفهم اذا لم يكن العقل قوياً ويدخلنا حب الذات اذا

(١) Paschal من أشهر علماء الفرنساويين في الفلسفة والرياضة والطبيعة (١٦٢٣—١٦٦٢)

(٢) « Res cogitans, id est dubitans, affirmans, negans, pauca intelligens, multa ignorans, volens, nolens, imaginens etiam et sentiens.»

تجردنا عن الاخلاص ولا نقدر على العمل بغير صحة وتصير المقاصد الحسنة مجلبة للضرر اذا لم نستعن بالفكر الصحيح . وانا اذا اردنا مدح صاحب نقول انه رجل كامل التهذيب اى انه كما قال تاكيريه « رجل مستقيم كريم الاخلاق مقدام حسن المعاملة ويندر توفر هذه الصفات فى احد »

واصح طرق تهذيب النفس هو كما قال جون استيار ميل « ان يعتنى الانسان بفحص كل الامور صغيرها وكبيرها وان لا تثنى عزمه أية صعوبة وان لا يقبل فكرةً من اى سلطة كانت الا بعد فحص دقيق وانتقاد انكارىّ حق بحيث لا تفوت فكره سفسطة او عدم ارتباط او خلط فى الافكار ويشترط خصوصاً ان يكون معنى كل لفظ استعمل محدوداً وان يكون المراد بكل عبارة واضحاً وهذه هى الدروس الحقيقية الواجب معرفتها » وكل الناس فى قدرة من ذلك فان المبادئ الاولية لكل تربية سهلة على الجميع ولا يختلف فيها العالى عن الوضيع ولا الغنى عن الفقير فان السير جونز[1] بثروة فلاح صغير امكنه الحصول على تربية الملوك وقيل من قديم « ليس من طريق ملوكى يوصل للعلم » ولكننا نقول الآن « ان كل طريق يوصل للعلم هو طريق ملوكي » وانا باتباعنا هذه النصائح نبلغ اسمى المقاصد لان التربية تبين لنا تاريخ الماضى وان كل شيء آخذ فى الوضوح والتقدم وتجعلنا نتمتع بالآداب العمومية وتقرب

(١) Sir W. Jones من علماء المستشرقين ولد بلوندره سنة ١٧٤٦ وكان محامياً بها ثم تولى القضاء بمحكمة كلكوتا بالهند ومات هنالك سنة ١٧٩٤ وكان يعرف عشرين لغة وترجم جملة كتب الى لغات مختلفة منها المعلقات الى اللغة الانجليزية

من عقولنا حقائق الطبيعة وتفجر لنا عيون الثروة والسعادة

واذا لم نتمكن من ان يقال عنا كما قال شكسبير « اننا كنا رجالاً لن يسمح الدهر بمثلنا » فانه في مقدرتنا على الاقل ان نتجمل بمحاسن الحياة

واذا لم تكسب التربية نتائج حسنة فانما يكون الخطأ من طريقة التربية لا من عقل المتأدب لان الرجال كما قال بيكون « لما علموا بفائدة العلم حصلوا عليه بالبحث تارة لميل طبيعي وطوراً لتفكهة عقولهم بحقائقه وآونة لتزيين افكارهم او الاعجاب بمعلوماتهم ولكنه نادر من كان قصده استعمال ما أوتيه من المعرفة في خدمة بني الانسان . مثل ذلك كمن يقصد بالعلم طبقة يريح عليها فكره الباحث او تتروّض فيها نفسه المتزعزعة امام جميل المناظر او صرحاً ملؤه الكبر لتعتصم به نفسه المتعالية او حصناً للمضاربة والمشاغبة او مستودعاً يأتيه بوافر الربح لا كنزاً نفيساً لتمجيد الخالق والاخذ بناصر بني الانسان »

٨

في خزانات الكتب

لقد اطرى احد كبار عقلاء الانجليز (ريشاردي بوري) من مدة خمسة قرون في مدح الكتب حيث قال « هاكم المعلمون الذين لا يضربون ولا يزجرون ولا يسيؤن في المعاملة ولا يغضبون ولا يطلبون هدايا ومن اذا دنوت منهم لا ينأون عنك واذا سألتهم لا يبخلون عليك بالجواب واذا تغاضيت عنهم لا يشكون منك واذا كنت جاهلا لا يسخرون بك »

فاذا كان هذا قولهم فى قديم العهد ألا يجدر بنا العمل به الآن وقد طبعت الكتب وصارت زهيدة الثمن سهلة الاقتناء والمطالعة صغيرة الحجم خفيفة الحمل بعد ان كانت ضخمة عسيرة القراءة ؟

ولقد كثر عدد الكتب وطبعت كميات وافرة من قديم المؤلفات المفيدة وكانت القصص الادبية معدومة فى زمن دى بورى واصبحت الآن عديدة وما كانت فى مدته دواوين شعراء كشكسپير وميلتون وغيرهما وكان علم الكيميا وغيره من العلوم مجهولاً وعلمت الآن فاستفدنا منها كثيراً. قال شوپنهوير(١) « اذا لم أزدد من العلم فائدة فانى عرفت منه على الاقل ان اقتصد كثير مصاريف » وقد نشأ عن العلم ان زادت ايرادات الامم مما لا يحتاج لبيان وقد يتوهم البعض ان ما ينفق من الاموال على تأسيس المدارس وخزانات الكتب ودور الآثار هى مصاريف هالكة مع انها فى الحقيقة رأس مال محفوظ لسعادة الامة وفائدتها

وقد لامنى البعض على قولى انه سيأتى يوم تكون فيه العملة واصحاب الحرف اكثر الناس اشتغالاً بالمطالعة على انى ما قلت ذلك الا لعلمى ان دور الكتب لا تؤسس فى بلد من بلادنا الا بكثرة اصوات ساكنيه وعدد رجال الكنائس والمشتغلين بالعلوم العقلية قليل فهم حينئذٍ العملة واصحاب الحرف وصغار التجار الذين يطلبون تأسيس دور الكتب للمطالعة فيها. والكتب من جهة اخرى ضرورية للعملة فى المدن لان حياتهم ليست متنوعة كحياة غيرهم فان المتوحش نفسه يشتغل بصيد الغزلان ودرس

(١) Chaupenhauer

طرق صيدها وعوائدها ومعرفة مواقع مرعاها ومأواها واوقات الصيد في البر والبحر ويصنع لنفسه ما يلزمه من الآلات والعدد والمساكن فهو بهذا السبب ينوع شغله ويشكل غذاءه . وكذلك المزارع فانه يحرث ارضه ويزرعها ويحصدها ويشتغل بتربية بقره وغنمه وغير ذلك وفي هذا مع صعوبته من السرور واللذة ما لا يخفى . حكى عن رجل انه سأل خادمة وردسورث عن غرفة شغله فدلته على غرفة نومه وقالت له ان محل شغله هنالك واشارت الى الغيطان . ونعلم مما تقدم ان العملة هم الذين يعيشون في حياة مملة حيث انهم يكلفون بعمل واحد او بجزء من عمل يشتغلون فيه طول حياتهم فاذا لم ينوعوا تلك الحياة بمطالعة الكتب كانوا كآلة تتحرك لا تعى ولا تعقل . وقد نقصت ساعات الشغل فلا ينبغى لهم ضياع وقت الراحة في الكسل لان الراحة من اعظم الفضائل والكسل من اقبح الرذائل والاولى سبب سعادة والثانى منشأ كل ضرر بل عليهم ان يشغلوا بالمطالعة كثيراً من اوقات فضائهم

وما توسيع نطاق مدارسنا وانشاء خزائنات للكتب فيها الا لتحسين تعليم ابنائنا وبث روح حب المطالعة في نفوسهم وتوجيه انظارهم بصفة خاصة الى فوائدها

يحكى ان الملك الفريد(١) لما كان طفلاً اراد اخذ كتاب فقالت له امه : « سيكون لك حينما تقدر على مطالعته » وكان هذا الجواب سبباً في سرعة تعلم الملك القراءة . فمتى تعلمت اولادنا القراءة ايضاً يجب مكافأتهم بنفيس الكتب وما نفيسها بغالى الثمن . وحاجة النفس التى لا ترتبط بالغنى

او الفقر هي الكتب فان الفقير في قدرته اقتناء ما لا طاقة له على مطالعته من المجلدات

ولا ينبغي لمن كبر سنهم ان يقتصروا على الاشغال اليدوية ويضيعوا كل اوقاتهم فيهـا بل عليهم تخصيص اوقات للمطالعة والاشـغال العقلية لانماء مداركهم ونفع بني الانسان بمعلوماتهم . ومن يظن ان هذه الاشغال لا تليق الا بالفلاسفة واذكياء العقول فقد اخطأ لان ثروة بلادنا تنسب الى ملوكنا العادلة ورجال الحـكومة العقلاء وجندنا الباسل في البر والبحر والى المستكشفين الشجعان الذين انشأوا بعلوّ همتهم واسع مستعمراتنا والى الفلاسفة وذوى العقول النيرة ثم ايضاً الى الصناع الواجب علينا شكرهم الذين لم يقتصروا على افادة البلاد بنتائج ايديهم بل بقوة عقولهم ايضاً فقد كان (وات) ميكانيكياً و (هنري كورت) الذي كان ابوه بنـاءً اضاف باكتشافاته الصناعية ثروةً للاهالي توازي الديون العمومية و (هنتسمان) الذي اخترع سبك الصلب كان صانع ساعات وكان (كرونتون) نساجاً و (ودجود) صانع فخار و (برندلي ونكفور وميشات ونيلسون) صناعاً و (چورج استيفانسون) راعي بقر وما تعلم القراءة الا في الثامنة عشر من عمره و (دالتن) كان ابوه نساجاً و (فارادي ونوكومن) ابنـاء حدادين و (اركورايت) كان حلاقاً و (السير همفري داڤي) مؤسس مدينة برمنجهام كان ابن احد صناع الازرّة و (وات) كان ابن نجار وغيرهم ممن يحق لنا الافتخار بهم اكثر من افتخارنا بقواد الجيوش ورجال الحـكومة

وقد نسمع احياناً ونقول « الامم المتمدنة » ولا يشك احد فى ان بعض هـذه الامم يستحق تلك الصفة ولكنه فى الحقيقـة ما من امة تستحقها تمـاماً فعلينا اجهاد النفس فى سبيل الحصول على المدنية الحقة ومطالعة الكتب لها فى ذلك النصيب الوافر

وكثيرمن الناس من تشابه حياتهم حياة من يعاقب بالاشغال الشاقة المؤبدة ولكنه لا يلزم ان تكون حياتهم لهذا السبب خاوية الفوائد منشأ للمصائب بل عليهم ان ينشطوا النفس وينوعوا تلك الحياة بمطالعة مفيد الكتب

قال السير چون هرشل احد كبار علماء الانجليز « لو خـيرت فى انتخاب ما احفظ به حياتى واروّح فيه نفسى واصونها من شر الناس والدنيـا لاخترت المطالعة لان من تيسرت له اسبابهـا يصير ولا شك سعيداً حيث تتجسم امام عينيه احوال الامم الغابرة ويكون كمن عاش مع جميع افرادها وكأنما خلقت الدنيا له »

وتكاد الكتب ان تكون فى عداد الاحياء وهى كما قال ملتون « تشمل عناصر حياة النفس التى أنشأتها »

ان ذكرى كبار الكتاب مخلدة لان من كان عمله موجوداً فهو حيٌّ فى القلوب ولو مات

ولقد امرالدوق دوربان مؤسس دار كتب مدينة أوربان بتجليد كل الكتب الموجودة بهـا بالقطيفة وتحليتها بالفضة وقال لامب « يجب ان نشكر الله قبل مطالعة كتاب كما يجب ان نحمده عند الاكل »

٩

في المطالعة

الكتب لبني الانسان كالحافظة الامينة للرجل حيث نجد فيها تاريخ الامم ومكتشفات الرجال وجليل حكمة العقلاء وخلاصة التجاريب في سالف الاعصار كما انها مرآة عجائب الطبيعة ولطائفها الآخذة بناصرنا في اوقات الشدائد المواسية لنا في الاحزان والاتعاب وهي التي تبدل ضجرنا سروراً وتملأ اذهاننا بمفيد التصورات وثاقب الافكار فتقوّم ما بنفوسنا وتبعدنا عن الاحزان والمصائب: من امثال الشرقيين ان احد الملوك كان يرى في نومه كل ليلة انه صار شحاذاً وان شحاذاً كان يرى بعكسه انه صار ملكاً مقيماً بباذخ قصر . وانا لا ندري من كان منهما أسعد حظاً . الا ان التصور له احياناً تأثير اشد من الحقائق كما أن المطالعة تبيح لنا ان نكون ملوكاً حقيقيين وان نسكن اجمل القصور واجلّ من ذلك انها توجه افكارنا الى اسرار الجبال والبحار وترينا عجيب مناظر البلاد بغير ما تعب انتقال او ملال فكر او كثير مصرف . وقال فليتشر[١] « دعني اروّض النفس فيما حلا لي فاني مع كتبي كملك في قصره أتكلم في كل آن مع عقلاء وفلاسفة السلف ثم انوّع سروري بمخاطبة الملوك والامبراطرة وافحص احوالهم وادقق النظر فيما كسبوه من الوقائع وأمقت ذكرهم اذا كانوا قد اكتسبوها بغير حق ولا اجيز اقامة التماثيل

(١) Fletcher من مشاهير شعراء ورواة انجلترا (١٥٧٦—١٦٢٥)

التى شيدت لهم . وهل يتصور بعد ذلك انى اترك هذه المسرّات الحقيقية لأجمع اموالاً دنيئة القدر غير محققة النوال ؟ اصرف همتك ان شئت الى جمع الذهب فانى لا اهتم الا بتعزيز قوة علمى! »

وكثيراً ما نشبه الكتب بالاحباب ولكن الموت الذى لا يرفق بأحد ينشل من بيننا اعزهم واكثرهم فائدة ويعدم الدهر بعكس ذلك ردىء الكتب ويرفع نفيسها ولقد اكد كثير من ذوى الثروة الطائلة أنهم وجدوا فى المطالعة سعادة وارتياحاً اكثر مما عاد عليهم من ثروتهم

قال أشام[1] يصف زيارة له لاحدى مشاهير السيدات «انه وجدها جالسة على خارجة نافذة من دارها مشتغلة بقراءة عجيب وصف افلاطون الحكيم لموت سوقراط فسألها عن سبب عدم خروجها مع ذويها الذين يصطادون فى بستان الدار فاجابته : إن ما يطلبوه من السرور فى الصيد ليس الا ظل ما استخلصه من لذيذ المسرّات فى المطالعة » ونرى فى تاريخ حياة ماكولى صاحب الثروة الطائلة والشهرة الفائقة والصحة الجيدة أنه كان يعتبر ساعات مطالعته اسعد اوقات حياته وانه كتب فى جواب لحفيدته يقول « اشكر منك لطيف كتابك الذى سرّنى كثيراً باعلامى ان حفيدتى فى تمام سرور وهناء بال ولا شىء يزيدنى فرحاً اكثر من رؤيتها تؤثر المطالعة وتحب نفيس الكتب فانك متى بلغتين من العمر سنى تعلمى عظيم فائدة الكتب عن غيرها من الفطير والحلوى والالعوبات

(١) Ascham

والمناظر والملاهي الدنيوية . فاني لو خيرت في ان اكون اكبر ملك في الارض ولي جميل القصور والبساتين ولذيذ المآكل والمشارب وثمين العربات وفاخر الثياب ومئات الخدم واشترط عليّ في كل ذلك ان لا يكون عندي كتاب لرفضت ذلك الملك بغير مطالعة وقبلت ان اكون فقيراً في عشة معي كثير من الكتب »

وكل هذا حقيق لان المطالعة تملكنا مفاتيح جميل القصور وكما قال جان پول رشتر « انه يُرى من اعالي جبال البرناس ما لا يرى على سدة ملك » وتبعث الكتب في فكرنا حقائق الاشياء اوضح من الحقائق نفسها فاذا لم تفدنا مطالعة كتاب فليس على الكتاب من ذنب لان معرفة القراءة فن ولا تفيد كثيراً مطالعة بغير تروٍّ . ويظن الكثير انه يعرف القراءة والكتابة على ان القليل منا من يعرف ان يكتب او يستخلص من القراءة فوائدها الحقة

قال أشام « تُعلم المطالعة الصحيحة في سنة ما تعلمه التجربة في عشرين سنة الا انه لم ينشأ عن تعليم المطالعة خطر واما التجربة فانها كثيرة الالم صعبة التعليم فان القبطان الذي لا يصير ماهراً الا بكثرة حوادث الغرق هو قبطان تعيس الحظ والتاجر الذي لا يغتني او يتدرب على العمل الا بكثرة التفاليس هو تاجر حقير والحكمة التي لا تدرك الا بعد كثير التجاريب هي حكمة غالية الثمن »

وانتخاب الكتب كانتقاء الاصحاب وعلينا مسؤلية ما نقرأ كمسؤليتنا عما نفعل فعلينا ان نستخلص من الكتب اعظم ما ترتاح اليه النفس ان لم

يكن اعظم ما يمكن من الفوائد وان تكون مطالعتها لتقويم الفكر لا لضياع الزمن

وتختلف قيمة الكتب فى الفوائد٠ فللكتب سهلة المطالعة المروضة للنفس فائدة ولكنها كفائدة السكر وهو عنصر مهم للتغذية ولكنه لا يكفى وحده لحفظ الحياة . اما رديء الكتب فكفاها ذماً انها رديئة وقراءتها ضياع فى الوقت ومفسدة للاخلاق نعم ان اطلاع العاقل على مثل هذه الكتب يزيده وعظاً ولكنه يجب معرفة ان كل ما يجعلنا نألف الشرّ شرّ . ويوجد عدد عظيم من مفيد الكتب التى تسرنا قراءتها وترقى فكرنا الى أعلى مداركه وتنسينا مشاغل الدنيا ومتاعب الحياة

ويصعب قطع المطالعة فقد قال هامرتون « اذا تصورنا مطالعاً مشتغلاً بقراءة كتاب يبحث فى التمدن القديم كقراءة مدافعة سقراط فى كتاب افلاطون وشكل أمامه تلك المناظر ورأى مجلس الخمسمائة مجتمعاً ومحاسن الصناعة اليونانية بالغة حدّ الاتقان واهالى البلاد تمد الاعناق للاستماع والاعداء مملوءة القلوب حقداً والاحباب آسفة وفى وسط هذا الجمع رجل فى زىّ الفقير عليه رداؤه الخشن ملبسه فى الشتاء والصيف بوجه حافظ لونه العادى تبدو عليه علامات الشجاعة والحرية مما لا يقدر على وصفه المشخصون ثم يُسمع صوته يقول : « يموت الرجل الحىّ ولكن ذكره لا يموت[١] » ثم ينتقل المطالع الى الكلام على ما فعل سقراط بنفسه من شربه السمّ . فاذا لم يقطع ذلك المطالع فى قراءته حتى النهاية

(١) «Τιμᾶται δ' οὖν ἀνὴρ θανάτου εἶεν.» تيماى ذيون أنير ثاناتو ايى

يشعر ببعض تلك اللذات الشريفة التى هى خير مكافأة لكل عمل عقلى فان من يقرأ ولو ساعة واحدة فى كتاب حسن مفيد يزداد سعادة فى النفس وكمالاً فى العقل ويستمر هذا السرور معه فيغذى افكاره ويقوى مداركه

وقد ورثنا بلاغتنا عن آبائنا وهى حق لا يمكننا التجرد عنه فنبغ منا وسيوجد فينا اكبر الشعراء والفلاسفة ورجال العلم فى العالم مما لا يمكن لأى امة اخرى ان تفتخر علينا به واننا نستفيد من تلك البلاغة ربحاً اكثر من التجارة وقوة امكن من قواتنا الحربية لانها اسمى عنوان شرف بلادنا . ومهما عظمت عبارات افتخارنا بها فانها لا تخرج عن حدّ الحقيقة

١٠

فى حب الوطن

ما قصدت من ترجمة هذا المبحث غير ذكر مثال صحيح يعلمنا لذة حب الوطن ومقدار ولوع الانجليز بهذا الحب الشريف وتغاليهم فيه وافتخارهم به وهكذا شأن كل أمة حية تعمل على رفع منار وطنها ونعم هذا الفخار ، قال المؤلف :

اذا سألت قلوبنا عن الوطن الذى تحب دوام ارتقائه لأومأت بلا تردد الى «بلاد الانجليز» تلك البلاد التى وان صغر حجمها الا انها صاحبة العلم الذى يخفق على العظيم من السفن التى تمخر البحار . تلك البلاد الواقعة فى احصن مواقع الارض المتنعمة بمنطقة متوسطة الحرارة ولا يغيب عن سماء املاكها قرص الشمس . تلك البلاد غنية التربة التى قال فى وصفها احد

رجال السياسة بامريكا « يخفق علمها على سطح البحار وحصون الثغور ويدوي صوت طبول جيوشها في جميع الاصقاع » تلك البلاد التي لم تبعث بجنودها الى انحاء الاقطار لمعاداة بني الانسان بل لحفظ النظام . تلك البلاد التي تدرجت سلّم الرقي حتى وصلت النهاية مسترشدة بخير اعمال السلف من بنيها وتبث في روح المعاصرين منهم الهمة والنشاط ليعملوا على حفظ هذا الشرف العظيم . تلك البلاد التي قد يأسف الانسان عند مطالعة تاريخها ولكنه ينشرح الصدر ويسر الخاطر عند ما يقارنه بتواريخ البلاد الاخرى فيتصور له ان لا مذابح في بلادنا حصلت ولا فظائع ارتكبت ولا مشاكل اقيمت . تلك البلاد التي يحارب جندها الباسل ويبرهن بقوته ومهارته على عالي غيرته الوطنية ويوقع في قلوب الاعداء الرعب وفي صفوفهم الفشل . تلك البلاد التي ما تعودت على جمع ضرائب من مستعمراتها وتوابعها كما كانت تفعل دول اليونان والرومان في قديم الزمن وكما تفعل غيرها الآن بل تصرف جسيم المبالغ لاصلاح داخلية تلك المستعمرات وكل ما تجمعه من طفيف الضرائب لا يوازي قليل ما تصرفه على ذلك الاصلاح .

فاننا ربطنا على بلاد الهند مالاً لا يُذكر بازاء ما نتكبده من طائل المصاريف في شؤونها ولولا رغبتنا في تعزيز المواصلات بيننا وبين الهند واستراليا لما تحملنا مشاق الصرف على بوغاز جبل طارق .

وقد احسنت جنودنا البحرية معاملة الهنود فجعلتهم يتمتعون في بحبوحة الراحة وهناء الحرية فان كل مايدفعوه لنا سبعون الف جنيه وهو

مبلغ زهيد فى مقابل ما يصرف على الاساطيل التى تحميهم . وما كانت غايتنا الوحيدة من امتلاك بلاد الهند سوى اصلاح داخليتها ومساعدة اهلها على تعميم الأمن والنظام فقد كانت مختلة الشؤون تضرب فى بطونها فظائع السلب والنهب وكان الملك مستأثراً بمقدار ستين فى المائة من حاصلات الحبوب لنفسه والحكومة بثلاثة وثلاثين فى المائة ايضاً والاهالى مهملة فى الفقر المدقع والاحتياج الشديد . ويؤيد هذا القول ما نراه الآن من ميل الهنود الينا واحترامهم لدولتنا ونحن من صغير لكبير نعاملهم باللطف واللين ولو كان لنا مطمع فى ممتلكاتهم ما بقى لنا أثر للآن بينهم . وقد لاحظ احد رجال الانجليز فى الهند ان الاهالى من بلاد (أجرا الى دلاى) ظنوا ان حكم الانجليز قد تقلص ظله فأخذوا فى تحصين القرى خوفاً من عودة الثورات كما كانت قبل حكمنا .

«ويزيد هذا القول بياناً مطالعة تاريخ مستعمراتنا فقد قال المستر وود عند وصفه جزيرة هنغ كنغ « انا دخلنا هذه الجزيرة وما بها الا لفيف من صيادى السمك » وصار بها الآن آلاف من الصينيين الذين هجروا بلادهم للتخلص من الظلم والجور عند ماعلموا بدخول هذه الجزيرة تحت حكم دولتنا العادلة وتحققوا من انهم سيلاقون فيها الراحة والحرية . وقال المستر هرن . « بعد ان انقضت الخمس سنوات التى احتلت فيها الدولة البريطانية جزيرة جاوا ورجعت تحت حكم هولاندا كانت الاهالى تتكبد مزيد العناء لاحتمال عوائد واخلاق الهولانديين بعد ابتعادهم عنهم تلك المدة »

كل هذا يبرهن على ان جل ما ننشده انما هو صلاح حال الامم وراحة بني الانسان .

وانه ليحزنني ما يقال من سوء معاملة دولة بريطانيا للايرلانديين واستعمالها القسوة والشدة معهم على اننا نؤثرهم على انفسنا ونفضلهم في كثير اشياء فانهم وان كانوا يدفعون ضرائب مثلنا الا انهم معافون من عوائد الاملاك واموال الاطيان وفوق ذلك فاننا نساعدهم بما قيمته ثمانين مليون جنيهاً في زمن القحط ولا نزال نميل الى لطف معاملتهم ونود من صميم افئدتنا منحهم الحرية المطلقة .

وعندنا الصلح والسلام من اهم الامور التي نستغني بها عن الحروب وحق علينا شكر من سبق من الرجال على اتباعهم هذه الخطة القويمة وتمهيدهم لنا طرقها كما يحق لنا الافتخار بانتشار لغتنا في جميع الاصقاع حتى اصبح الناس من كل فج يتكلمون بها . كيف لا وهي لسان فحول الشعراء والفلاسفة ممن تحلت باسمهم عقول الانام وتعطرت بمديحهم الايام هالك الشاعر الماجد « ملتن » والكاتب البارع « شكسبير » و « بيكون » و « سپنسر » وغيرهم ممن تود كل امة ان ينتسبوا اليها لتفتخر بهم

واننا ارقى البلاد تجارة واحسنهم فيها سياسة لان الدول الاخرى تحمل اهالي مستعمراتها وتوابعها على قبول مصنوعاتها ولكننا نترك لمستعمراتنا الحرية المطلقة في ذلك لئلا تسأم النفوس من بقائها تحت ظل حكومتنا

ومن يتأمل قليلاً في تاريخ الاختراعات يجد ان رجال الانجليز لهم

فيها اليد الطولى فقد اخترع «المستر وات» السفن البخارية و «المستر استيفنسون» الوابورات و «المستر اديسون» الكهربائية و «المستر ويتستون» التلغرافات و «المستر فاكس تالبولت» الفتوغرافية ثم كثير غيرهم . اما في الطب فقد اكتشف «المستر لستر» الدورة الدموية و «المستر هرفي» طريقة اجراء العمليات الجراحية وغيرهما من المشاهير مثل كافنديش وبيكون ودالتون ودافي .

ولا يسعني عند ذكر هذه الاسماء الا تجديد عبارات شكري لهم واعجابي باعمالهم وافتخاري بهم

ولا تطلب انكلترا من احد الا القيام بواجبه وهي ترفع صوتها قائلة لكل فرد : هاك أمام عينيك كل ما صنعته لاجلك فما مكافأتي عندك ايها الانسان !

وكلما راجعنا تاريخ دولتنا تنشرح صدورنا من رؤيتها قد نهجت طريق العدل والحكمة والاستقامة ويزداد أملنا في ان جميع من يتكلمون اللغة الانجليزية سيكوّنون يوماً ما امة عظيمة

واني اخشى ان ينسبني البعض الى التطرف في مدح بلادي العزيزة التي أنتسب اليها فاني لم اتجاوز في قولي حدّ الانصاف وهل يُلام الرجل المحب لوطنه المتعلق به ويحب مملكته ؟

ان محبة الانسان لوطنه الذي يعيش تحت سمائه وفوق ارضه ويشرب من مائه ويتغذى من طيب ثمره لمن اقدس الواجبات بل بذلك الحب الشريف يُرفع الوطن الى اسمى درجات الكمال ويحفظ

ذماره ويزيد شرفه فيما نحن مع الافتخار به معجبون بانتشار لغتنا وعلومنا التي غصنا بها عميق البحار وبأس رجالنا الذين رقوا بالوطن واهله الى اقصى أوج الفخار وبعظيم تجارتنا التي ما كان تقدمها ولا اتساع نطاقها يخطر ببال .

١١

في الواجبات الاجتماعية

لكل منا ساعد في ادارة بلادنا فيلزمنا للقيام بهذه المهمة اعداد نفوسنا بتقوية معلوماتنا وتوسيع فكرنا واحياء ارادتنا خصوصاً وان عظم مملكتنا واتساع اكنافها منشأ خطر عظيم والامم التي نحكمها مختلفة الاجناس لا تطابق افكارها افكارنا ولا رغباتها رغباتنا فنجد بلاد الهند التي يبلغ عدد سكانها عشرة اضعاف سكان انجلترا تقريباً انها مقسمة الى اقسام كثيرة تنتسب لاجناس وديانات مختلفة

والهندي الاصلي مثلنا في الانسانية وفي لغته بعض الشبه من لغتنا في الاصل والتركيب ولكن الهنود الاصليين ليسوا الا جزءاً من السكان وكذلك فانهم وان ابتعدوا عنا عهداً طويلا لأقرب الينا في الخلقة من الدراڤيديين المقيمين في الجنوب او الماليزيين والصينيين المقيمين في الشرق . وهناك اختلاف الديانات سبب لطويل المشاكل مع المسلمين الذين كانوا ملوك البلاد ويكونون الملوك ايضاً اذا غادرناها . وعلينا خلاف الهند موارد مسؤليات اخرى وعلاقاتنا الكثيرة مع الامم العظيمة في بقاع

الارض تفتح علينا كل يوم باب اشكال جديد مما يستلزم منا كثير مهارة ولطف ولين .

فعلى من يشتغلون منا بالسياسة ان يعرفوا متى يفضل التنازل ومتى تجب المعارضة وعلى الباقين الثقة بهم وتعضيدهم .

وقد علمنا من التاريخ كيف كان انقلاب الممالك العظيمة كمصر وسوريا والفرس وروما وكيف كانت عظمتها وكيف كان سقوطها وكانت تشابهنا جنوا وفنيقيا بقوة سفنهما وسعة مستعمراتهما ويلزمنا تجنب ما وقعتا فيه من الخطأ اذا اردنا ان لا تسقط دولتنا لان أقل هفوة كافية لتلاشى اعظم الامم : قال بيرون « لا تكفي الف سنة لتشييد دعائم مملكة ولكن ساعة واحدة تكفى لتدمير اعظم الممالك »

ومن الواجب اتباعه فى سياستنا الخارجية حفظ العلاقات الودية مع الامم الاخرى . وانا لنأسف كثيراً على ما تكنه قلوب الامم لبعضها من العداء على ان واجبات الانسانية التى تشمل الجميع تقضى بضرورة التقرب والتحابب والائتلاف وما قاله احد خطباء بلاد الغال فى عبارته الآتية يوضح لنا هذا الرأى بأجمل تشبيه فقد قال « انه بينما كان يتنزه ذات يوم رأى من بعيد شكلاً مخيفاً فوق أكمة ولما اقترب منه قليلا ظهر له انه رجل ولما صار بجانبه وجده اخاه » واننا والامم الاخرى أخوان فى الانسانية نستفيد بفوائدها ونألم لألمها ونسعد بسعادتها وكل اهتمام دولتنا توطيد السلام وترقية نوع الانسان ومنح السعادة للعالم اجمع .

ولقد ازعجت الحروب فكر الانسان فاننا نبالغ فى وصف

استعدادات الجيوش وتشجيع الجندى على الفتك بالارواح ليكون يوماً ما قائداً ونخرس عن وصف الآلام التي تحيق ببنى الانسان من جراء تلك الحروب : ان فظائع ومذابح وآلام الحروب لأقوى سبب يدعونا الى قبول (التحكيم) فالى متى تبقى هذه الوصمة الشنعاء بل العار العظيم فى وجه الانسانية ؟ ماذا نقول عن القبائل المتوحشة ؟ ألا يكون لها عذر فيما تحدثه من الفظائع والقلاقل اذا كانت الامم المتمدنة الحافظة لسياج الانسانية ترتكب ما هو افظع ؟

ان الاحساس الشريف والعقل السليم لا يقبل شيئاً من ذلك !

يوجد فى اوربا من الجند الآن ثلاثة ملايين ونصف فى وقت السلم ويبلغ هذا العدد عشرة ملايين فى وقت الحرب وتستعد لتبلغه عشرين مليوناً وتبلغ المصاريف كل سنة مائتى مليون جنيهاً ولما صار التجند بالاقتراع زادت المصاريف ايضاً . كل هذا للتسلح ضد بني الانسان ولو اقيمت هذه الثلاثة ملايين ونصف من الرجال (وهم الاشداء) فى اعمال مفيدة وقدرنا نتيجة عمل كل منهم بخمسين جنيهاً فى السنة لكان مقدار ما نستفيده منهم مائة وخمسة وسبعين مليوناً من الجنيهات وباضافة هذا المبلغ على المائتى مليون جنيهاً التى تصرف على اولئك الرجال فى الجندية يكون مقدار ما تصرفه اوربا حقيقة على الحروب مبلغ ثلاثمائة خمسة وسبعين مليون جنيهاً فى السنة

وهنالك اعتبارات اخرى تؤيد قولنا هذا ولكنى اقتصر على هذا الاعتبار المالى علماً بأن الدراهم هى التى تمثل حياة الانسان

وانه ليستحيل علينا ان ننظر مثل هذه الاستعدادات الحربية فى البر والبحر بدون ان نشعر بألم شديد وقلق عظيم لان عاقبتها ان لم تكن الحروب فستكون الافلاس والدمار .

وديون اوربا آخذة فى الازدياد يوماً فيوماً فقد انتقلت فى العشرين سنة الاخيرة ديون ايطاليا من اربعمائة وثلاثة وثمانين مليون جنيهاً الى خمسمائة وستة عشر مليوناً وديون النمسا من ثلاثمائة واربعين مليوناً الى خمسمائة مليون وديون الروسيا من ثلاثمائة واربعين مليوناً الى سبعمائة وخمسين مليوناً وديون فرنسا من خمسمائة مليون الى بليون وثلاثمائة مليون وبلغ مجموع ديون حكومات العالم فى سنة ١٨٧٠ اربعة بليون جنيهاً وهو حمل هائل فظيع ثقيل . وماذا نقول الآن وقد بلغت ستة بليون ونراها تزيد يوماً بعد يوم ! ومما يزيد حزننا ان كل هذا الحمل المريع لم تنشأ عنه فائدة ما بل استنفذ فى اقامة حروب وفى الاستعداد لحروب اخري . فأين السلام ؟ ألسنا فى حرب مستمرة لا تنقص غير الوقائع والمذابح !

اننا ننفق فى انجلترا ثلث إيرادها فى تحضير حروب مستقبلة وثلثاً آخر فى سداد قيمة حروب ماضية ولم يبق غير الثلث لادارة البلاد وحكمها . ومطامعنا كثيرة ومصالح كل الامم مرتبطة ببعضها فكل حرب تحصل اليوم تكون بلا شك حرباً مدنية

واذا لم يصادف قولى « طلب السلام بأىّ ثمن » قبولاً فانى لا اخشى ان اقول « بان السلام الوهمىّ السائد الآن غالى الثمن » . نعم قد تطرأ بعض مسائل حيوية يصعب فيها التحكيم ولكن كل الحروب التى

اقيمت في مدى المائة سنة الاخيرة كان يمكن الاتفاق فيها بدون رفع سلاح . ولما تكلمت مع المسيو غامبتا في مقابلتي الاخيرة له على هذا الموضوع اجابني بنشاطه المعهود « انه اذا استمرت المصاريف على هذه الحال يأتي يوم تكون فيه الفرنساويون جمعاً من الشحاذين بازاء صفوف ثكنات الجيوش » ولكن فرنسا تنبهت بعد لذلك فخفضت كثير تلك المصاريف .

ويزيد اسفنا كلما أمعنا النظر في احوال اوروبا فقد انهكت النهليست بلاد الروسيا واصبحت المانيا تخشى الاشتراكيين وفرنسا مرتعدة الفرائص من تهديد الفوضويين وسائرة تحت السير في طريق الافلاس ولا عذر يقبل لهؤلاء الفوضويين يحلل ما يرتكبوه من الجنايات والفظائع الا انه لا يوجد في هذا العالم شيء بلا سبب

وتشتغل الصناع باوروبا كثير ساعات يهول طولها في مقابل اجر زهيدة جداً وقد قرأنا في تقارير ايطاليا الاخيرة ما يشخص حالة المزارعين التعيسة في هذه البلاد وليست حالة صغار الملاّك في فرنسا وغيرها بأحسن من ذلك . واني اوافق من يقولون بضرورة جعل يوم الشغل لا يزيد عن ثمان ساعات ولكن جمعية هايدبرك قررت منذ سنين عدم امكان تنقيصه بدون اتفاق دولي وعندي ان خير وسيلة لذلك تخفيض ميزانية الحربية لانه اذا ابقيت الحالة العسكرية الحاضرة على ما هي عليه لا يأمل احد في تنقيص زمن الشغل

وتدعو الضرائب اللازمة للجيوش البرية والبحرية كل رجل وكل امرأة في اوروبا ان يشتغل على الاقل ساعة زيادة عن الزمن الذي يلزمه

حتى صار الدين عبادة اله الحرب لا النصرانية

وتضر الممالك بعضها مالياً وقد قال كوپر « ان فاصلة الجبال تسبب العداوة بين الامم التى كانت تودّ الاتحاد » ولكن شرّ الفواصل ما اسسته الامم بيدها بين بعضها البعض كالجمارك والدخوليات وغير ذلك . ثم توهم كل منها العداء فى الامم الاخرى ورميها بما لا يطرأ على فكر واحدة منها فتقام الثورات وتحم الخطوب وتشعل نار الحروب

وللعلم والافكار العامل الاول فى ذلك لأن العلم آمر السيف والافكار اقوى من الحراب فيلزمنا لتتميم وظيفة المدنى الصادق ان نربى فكرنا باعتناء كما قال بورك وان نقصد باعمالنا تحسين المجتمع الانسانى وتقدمه . والحياة قادرة وتستلزم شهامة ومعرفة ومن ينقصه الاحتراس وقت وجوبه كمن يفرّ الى فريق العدو يخالف واجبه . وقد استحسن اللورد بلانجبروك فى رسالة « روح الوطنية » جملة لسوقراط مغزاها « لا يجسر الصانع على عمل ما لا يعرفه ولكن كل الناس يظنون انفسهم قادرين على تدبير الممالك وهو اصعب الاعمال » وكان كلامه هذا عن حالة اليونان فى عصره ولو عاش للآن ودرس احوال انجلترا ما غير شيئاً منه

فان لدينا كثيراً من المسائل التى تستلزم حلاًّ عاجلاً وصار النزاع طويلاً بشأن عدم كفاية رؤوس الاموال للاعمال بدرجة يخشى منها تأخير ارتقاء مصنوعاتنا ونقص اثمانها . ولا تزال الصحة فى مدننا العظيمة متأخرة والعلم فى مهد طفوليته واشغالنا العمومية محتاجة الى كثير عناية . فان المناقشات فى مجلس البرلمان وادارة الاشغال والمكاتب الخيرية

تستلزم منا التفاتاً خصوصياً وبيننا كثير فقراء ولكنه لوجود الجمعيات الخيرية ورأفة الاغنياء والقوانين التي وضعت في صالح هؤلاء البائسين والاهتمام بشأن هذه الوسائط أمنَّا الوقوع في الفوضى وتضارب الافكار كغيرنا من الامم

وليست الدراهم بأهمّ الواجبات الاجتماعية فقد قالت الآنسة « سويل » المشهورة بقوة الحجة في مثل هذا الباب « سأقول امراً ولا اخشى ان يقال انه بدعة فانه الحق وهو : كلما كانت سكان جهة فقراء كلما كان التصدق عليهم بالدراهم اقلّ فائدة ولو في اول الامر » فان المجاملة والتحبب اغلى قيمة من الذهب ومن يضيع وقته انما يفقد اكثر ممن يضيع دراهمه كما انه يخشى ان يحصل من الدراهم والتهور ضرر اذ ربما يضر العمل الذي لم نحسن صنعه اكثر من الذي أُهمل . وعلى هذا فبث روح الامل والشجاعة في قلوب الفقراء أفيد بكثير من مساعدتهم بالدراهم . والاعانة الحقيقية هي التي نقدرها على ترقية العقول وتقويم القلوب لا التي نتحمل بها مصائب غيرنا فيشترك الداء في المريض والطبيب وعدا ذلك فان الاحسان بالدراهم يعود الفقراء عدم الاشتغال ويميت قلوبهم عن الواجبات ويحوّل رغباتهم عن حب الاستقلال

فلا تمن احداً بدرهم واجعل كل مروءتك في ان تهيء له سبباً للمعيشة ليتمكن من مساعدته لنفسه

ويحتاج كلٌّ منا لغيره في المعيشة ولكن العاقل لا يتكل على غير ساعده في قضاء حاجاته فانه يستحيل اتفاق الافكار ويصعب تشابه المشارب

كما لا يمكننا تحقيق جميع مقاصد الغير في نوال التقدم وكثيراً ما ننفق دراهم للتخلص من بعض ما نعد به لا لقصد خالص الصدقة . انما لا يجب ان تُنقص مثل هذه الافكار من همتنا في السعي مع الغير في صالحه فان هذا مهما قلَّ يعرب عن شرف النفس ويزيد رفعة في القدر ومحمدة في السيرة خصوصاً لو كان القيام بتلك الخدمات خالياً عن الغرض وعمله بقلب خالص فانه يكسب خير الجزاء

ومن اقدس الواجبات العمل على رفع منار الوطن مهما كلفنا من طائل المال وتحمل الاخطار وقد قال چلبرت « من لم يقم باداء واجبه نحو وطنه وشخصه خوفاً من الخطر او الموت ليس باهل لان يعيش لان الموت لا بد منه ولكن النفس الشريفة لا تموت »

وليست الاعمال العمومية كتشكيل اللجان والانتخابات والجمعيات الانتخابية والخطب والمجالس البلدية والعمومية باعمال خيالية تدهش الفكر وتزعج الخاطر ولو أن الانتخاب في وقت السلم كضربة السيف في وقت الحرب ولا يقل عنه في التأثير الا كونه لم يهدر دماً او يكدر صفو السلام

كما ان الانتخاب ليس بحق لنا نطلبه انما هو واجب يلزم الاستعداد لآدائه ولا يليق باحد ان يتمتع بخيرات وطنه الناتجة عن نشاط مواطنيه الا اذا شاركهم بعمل ما يجب عليه لان النجاح الشخصي كما قال بيكون لا يعتبر غاية للحياة

ومهما داخلنا حب النفس ودناءة الخصال فان الوقت الذي نمضيه

في آداء الواجبات الاجتماعية ليس بوقت ضائع لان حب الغير ومعاونته كما قال أرنولد والعمل على نشر لواء العلم ورفع الشك وتقليل وطأة الفاقة والميل الى اسعاد حظ العالم اجمع كلها دلائل المدنية الحقة التي تزيد في سعادتنا وسعادة الغير . ومما قاله مارك أوريل « قوّم النفس التي منحتها واجعل منها رجلاً شهماً حنكتهُ التجارب محباً للخير العام وطنياً ذا قدرة وسطوة لا يحتاج صدقه لشاهد او مساعد في الاثبات او جندياً ينتظر صوت النفير مستعدًّا لمفارقة الحياة » وفي مقدرتنا جميعاً ان نكون رجالا عدولاً ذوي شجاعة ووطنية صادقة لنتساعد على الوصول الى السعادة العامة ونشر لواء الصحة والفضيلة والكمال

١٣

في الحياة الاجتماعية

اننا معاشر الانجليز نفتخر باعتبار كل منا داره كحصن له ولكن هذا لا يكفي فانهُ يجب ان تكون داره محط رحاله ومركز افكاره . وقانون بلاده هو في الحقيقة ذلك الحصن وارادته الحية هي التي تعين لهُ محط الرحال ومركز الافكار

وتتولد هذه الارادة من احساس الحب والثقة وذكرى الطفولية وكرم نفس الاهل وآمال الشباب وواجب الميل والاحترام للغير وما يقدم لهم من صغير الخدمات فان ذلك منشأ حيّ الارادة المقوّم لها . وربما كانت الدار التي ينقص ساكنوها الحب قصراً او حصناً ولكنها لا

تكون ملجأ ووطناً كما ان الجثمان الذي لا روح فيه ليس بجسم انسان وفي الامثال « الفؤاد المسرور بهجة ابدية والقليل مع خوف الله خير من كنز ملؤه كدر » و « ان أكلة من حشائش يتناولها الانسان بهناء نفس ومحبة خيرٌ من أكل عجل سمين مع تشرُّب القلب بالعداوة والبغضاء فان قطعة من الخبز القفار مع التمتع براحة البال أسمى بكثير من طعامٍ طيب مع وجود المشاكل والمشاغب »

وليست منازلنا الآن بعزيزة علينا كما كانت قبل حيث كانت ايضاً حمىً لنا من استبداد الامراء والحكومة ولكنها صارت الآن ملجأ المضطرب الذي ازعجتهُ الدنيا بهمومها وهي كالمينا التي تحتمي فيها السفن عند قيام الزوابع والعواصف التي لا بدَّ للانسان من ملاقاتها في طريق الحياة حتى انه يُرى في العيش الاكثر سعادة تقلبات هذه الاضطرابات . ولا يهب النجاح في الحياة وحده السعادة ولا راحة الضمير

ولم يخلق الرجل ليعيش وحيداً في الدنيا بل ولا في جنة الخلد فانهُ كما قال برناردن « ما ذا تعمل النفس الوحيدة حتى في الجنة » واذا كان كل انسان مشغولاً بحاجات منزله فيكون محتاجاً الى غيره واننا لم نخلق للوحدة فقط ولا للاجتماع فقط بل للامرين معاً

ان محاسن الطبيعة لسرور دائم ولا تفيد بهجة السماء اذا كان القلب مظلماً فيلزمنا الاخلاص والاحترام والمحبة لعائلاتنا لان ذلك اساس التمدن الحقيقي الذي يوردنا الخير ويحيي عندنا أشرف شعور ووجدان ولا تفعل الملائكة أسمى منهُ اذ فيهِ منح السعادة للغير

وربما كان منزلك ضئيلاً بلقعاً لا يروق منظره ينقصهُ النظام انما فيه قوة قدرتك وتمام واجبك فيزداد خيرك وسعادتك كلما زادت صعوبته عليك وتجلدت على تحملها

وانهُ لصعب على النفس ان تصبر على الضيم او الظلم وأهون عليها تحمل شاق الاعمال من ذلك فان فيه تضحيتها التي هي اغلى من المال والوقت والدأب على العمل

وقليل منا من يعمل على ضرر الغير ولا أظنهم قد قرأوا ما ذكرته هنا ولكن منشأ هذا الضرر عدم التبصر وقساوة القلب ونقص الذوق . فعامل الناس بالبشاشة والرأفة والمحبة اذ لا يكفي ان نحب من نعزّ بالقول بل يجب ان نبرهن لهم على اخلاصنا ونتحاشى ما يفرط احياناً في كلامنا من المؤلمات . وكلنا يعلم مقدار ما يستفيدهُ من اقلّ عبارات التسلية والتشجيع التي ينطقها اللسان وقد قال اللورد شستر فيلد « طالما قام بنفسي ولا ازال اعتقد ان اعظم ما يجهلهُ الانسان هو طريق الحب والكراهية فاننا نضرُّ من نحب بتساهلنا في معاملاتهم وتعامينا عن اغلاطهم واحياناً بتشجيعهم على بعض الامور ونؤذي انفسنا في حالة الكراهية باتباع اهوائنا وتهوُّرنا »

واننا نعيش بين احبابنا منعزلين : قال جون بول رشتر « اننا نعيش في جزائر متفرقة في بحر واحد فنحن محبوسون في سجن جسمنا » وفي الواقع فاننا لا نعرف حقيقة اصحابنا واهالنا حتى ان افراد العائلة الواحدة يعيشون في عزلة لا رابطة حقيقية بينهم ومصالحهم كالخطوط المتوازية

لا تتقابل ابداً ! وقال كبل[1] « لا يدرك القلب الشفوق بنا والعزيز علينا نصف الاحساسات المختفية وراء بعض تبسمنا او تحسرنا »

واننا نمضي ايامنا في التكلم عن الطقس وعن آخر رواية ظهرت وعن السياسة وصحة جيراننا ومحاسنهم ومساويهم وكل ما لا يهم كثيراً معيشتنا الداخلية التي ترتبط الحياة الحقيقية بها وحدها . ولكل موضوع مبتذل قليل الاهمية حظ عظيم في محادثاتنا ثم نقول ان قليلي الفكر هم الذين يكثرون الكلام !

وفي الحقيقة قليل من يدرك صعوبة فن المحادثة اذ لا يكفي الاخلاص وحيّ الارادة لاكتساب قلوب افراد المجتمع بل يجب توفر توافق المشارب والقدرة على التعبير . فاذا لم تجد من الناس من يسرّ خاطرك فسرّ خاطرهم انت

ومن الناس من يتباهى بقول كل ما يمر بفكره . نعم انه يحمد الصدق والاخلاص ولكن المحادثة تستلزم انتخاباً في الافكار فاذا اردنا امتلاك قلب السامع وافادته يلزمنا بذل الجهد في حسن محادثته . ومن ينقبض صدره دائماً يكن اول فريسة لنفسه وكما قال پوپ « من يتعب الغير يتعب ولا يجد راحة الا في النكد » ومن لا يسرّ من شيء لا يسعد حظه ابداً بل ينقص سعادة الآخرين ايضاً . على ان جلب السعادة للغير لا يستلزم غير ارادة حية وذوق سليم وتجربة واعتناء خصوصاً وان هذا الاعتناء لازم في كل عمل يراد به الخير او الشرّ . ولطف المعاملة سبيل

(١) Keble

لنوال كثير من المقاصد وفى الامثال القديمة (يعرف الرجل بالمعاملات) وفى الواقع فان كثيراً ممن اغتنوا لم ينالوا الثروة الا بمعاملتهم كما ان كثيراً لم ينجحوا بسبب سوء تلك المعاملة فرئيس الوزراء لم ينتخب رفقاءهُ مثلا بتجربتهم او بلاغتهم او ذكائهم واخلاقهم فقط بل ينتخبهم فى الغالب ممن حسنت معاملاتهم واكتسبوا ثقة الناس

قال ماكسويل « ان الاتفاق والاختلاف كلمتان مستعارتان من الموسيقى ويدلان فيها على معنيين اوضح من المتعارف وهما اجتماع القلوب وافتراقها » ويجب عند لزوم الانتقاد استعمال اللين فيه خصوصاً فيما يتعلق بالاطفال فان عقل الصغير يتأثر مما لا يؤثر على الكبير . وقد ادعى روبنس انه يمكنه باشارة خفيفة فى صورة رسم ولد ان يجعله ضاحكا او باكياً وجميعنا يمكنه ذلك بكلمة واحدة

واذا لمت احداً فنصيحتك ان لا يتعدى لومك أذن من تلوم وان تمدحه بين الناس اذا لزم ذلك فان ما يقال سرًّا يسفر عن لطف وتعطف ويسمع بشكر ويعظم وقعه كما أن المدح ينهض همة الممدوح ويحسن سمعة المادح .

وأقل العثرات وقلل من اللوم ما امكنك واذا اوجب عليك عملك لوم أُحد فتلطف فيه مع ابداء تأسفك على اضطرارك اليه ولا تظهر غضباً ولا تجرح قلباً : قال ارسيتاش لخادمه « لو لم اكن غضبان لعاقبتك » ولا تسرع فى الكلام اذا اعتراك غضب بل تروّ فيه ولو قليلا لان حسن المعاملة واللطف فى انتقاد الاشخاص والدقة فى فحص الاعمال من أوضح

دلائل حسن التربية .

وعامل الناس بأدب كما هو الواجب وتذكر ان الموت يشمل الجميع . ولا تنفصل عن صاحب لك بحالة غضب او عدم اكتراث اللهم الا اذا اضطررت لذلك والا فتكون قد خالفت اصول الأدب وربما كان ذلك الانفصال هو الاخير فلا يؤسف عليك

ومن الكلام ماتنتعش به النفس ومنه ماينفذ في الجسم كالسهام المسممة وكما قال هزبرت « لايكلفنا الكلام اللطيف شيئاً بل يفيدنا كثيراً » ومع ذلك فليس الكلام في كل الاحوال لازماً فان نظرة واحدة من المسيح الى القديس بطرس لما انكره كفته ليبكي طول عمره .

وكما ان النظرة الواحدة كافية للعتاب كذلك تكفي في الغالب بعد طويل الفراق لتملأ القلب سروراً ويكفي التبسم المسفر عن أكيد الحب لينير حالك الليالي وكما قال لابرير « وجودنا مع من نحب كاف »

ولا تكن كثير الاعتكاف ولا تخش ظهور احساساتك وكن ودودا مظهراً أجلى البراهين على اخلاصك وكن شفوقاً ذا قلب سريع التأثر دقيق الالتفات صادق الاخلاص فان الرفق يريح القلوب باكثر من الاحسان والاخلاص أجل قدراً من الدراهم وتكسب الكلمة اللينة سروراً لا تأتيه الهدايا .

وتبصر في انتخاب اصحابك فانهم كما قال سيسيرون « من اعظم زينة الحياة » فانتخبهم كما قال چورج هربرت « من أكمل الناس لتعدّ منهم » وفي الامثال « لا تسل عن المرء وسل عن قرينه »

ولا يقل انتخاب النساء عن ذلك أهمية فكم دمرن من ديار عقلاء وما خطيئة سيدنا سليمان التي رويت الينا الا بسببهن

والمودّة كما قال ليلي « جوهر الحياة النفيس ومن لا اصحاب له تعس حاله وهو المسؤل وحده عن وحدته » وكما قال احد العقلاء « لم تشق المقادير بالانفراد الا من لا قلب يتأثر مع قلبه» فهل تجب علينا بعد ذلك الوحدة؟ يقول كبل «ان كلاً منا يعيش مقتصراً على دائرته يحجبه ستر السرور او الألم وترى أعينه ما حولها بنظر السعادة او الشقاء حسبما يهتدى اليه الوجدان » وهذا يحب في بعض حين لانه يصعب على الانسان التحبب من جاره اذا علم انه سيفارقه ولكنه في الغالب لا ينطبق على الكمال في شيء

وقد يتهيأ لك احيانا انك محق في شكواك فاصبر عند ذلك وتفكر فيماذا تعمله لو كنت في موقف من تشتكي منه ولا تتسرع ابداً فان الندامة في العجلة ولا تتعجل على الاخص في معاداة الناس بل تبصر كثيراً في الامر لانك مهما تألمت من معاملة صديق ثم صبرت يوماً يتغير نظرك اوكتبت لأحد رسالة مؤلمة وأبقيتها للغد فانك تبدّل كثيراً من عباراتها وتحذف كثيراً ايضاً . فتقرّب من اصحابك ووثق رابطتك بهم لانه خير بالانسان ان لا يكون له صاحب من ان يصحب من لا يثق به . ولا تخالط الاشرار والمفسدين ولا تسلك لهم طريقا فانهم لا تنام لهم جفون الا اذا عملوا الشر او اوقعوا رجلا في التهلكة ولا اكل لهم الا عيش الشقاء ولا شرب غير اقتراف الذنوب ولكن سبيل الصالحين ساطع النور يترقون فيه الى نهاية الكمال

واذا كانت معاشرة الاشرار مضرة فليس من الصواب معاداتهم لانهم

لا يزالون عديدين . فانتهز كل فرصة لتظهر لهم من اللطف ما يمنع أذاهم عنك فقد قال لامب « ان الهدايا تزيد المحبة ولكن اللطف والصبر والتوافق أكثر فائدة منها »

ولاصحابك الحق في ان يطلبوا منك ما يمكنك الاستغناء عنه ولكنه لا حق لهم في الاقتراض منك وقد قال شكسبير « لا تستدن من أحد ولا تدن احداً لان ذلك يفقد الدراهم والاصحاب وليس بمقتصد من اقترض » وقال سيدنا سليمان « من يضمن آخر يندم ومن يمقت الضمانة يعش في اطمئنان »

وتحفظنا الاصحاب من كثير اخطار واحزان فمتى تيسر لك وجود اصدقاء حافظ عليهم وكما قال شكسبير « اوثق رابطتك بهم بسلاسل من الصلب » ولا تجعلهم يشتكون منك. واذا فرق الموت بيننا وبينهم فلنطمّن القلب بأمل رؤيتهم في الدار الآخرة . نعم ان هذا الأمل لا يعزينا كثيراً على فقدهم الا انه يساعدنا على تحمل المصاب والصبر عليه

واهم مسائل الحياة أمر الزواج وأعظم لوازمه التوافق والحب وقد قال سيمونيد (١) « لا نعمة أتم من زوجة صالحة ولا نقمة أشد من زوجة سيئة » وفي الامثال « مثل الزوجة الشحناء كبالوعة تستجمع غزير المطر الهاطل ولأن يعيش الانسان في خباء خير له من ان يقيم في دار فسيحة مع زوجة غير مطيعة »

ويصعب ابداء رأي مفيد في انتخاب الزوجة ولكنه يجدر بي ذكر

(١) Simonide من مشاهير شعراء اليونان (٥٦٦ — ٤٤٦ ق٠م)

بعض نصائح نافعة في ذلك : ليس من الصواب ان يبادر الانسان في الزواج صغيراً ولا ان يتزوج لقصد الحصول على الدرهم او وهو خال منه فلا تقدم على هذا الامر الخطير الا بعد التأكد من اقتدارك على ما يكلفك به الزواج ولهذا السبب ترى بعض المتزوجين يعيشون في سعادة والبعض الآخر في شقاء . ويوجب الزواج عظيم المسؤلية فلا تغتر فيه بالظواهر ولا تنخدع لانه كما قال بعض العقلاء «ليس الزواج بانظار تحول وايدى تضم بل هو مسألة تختص بالعقل والقلب » والزوجة الصالحة ساعدنا في الحياة الحسية والمعنوية ويقول شكسبير « اذا تحابّ ادنياء الناس يشعرون بشرف في النفس لم يكن قبل في طباعهم » فاذا كان هذا تأثير الحب عند الادنياء فكيف يكون عند ذوى القلوب الشريفة ؟

اذا سعد الاقتران فليس في استطاعة البشر وصف تلك السعادة لانها هى التى تجعلهم لا يفترقون في اوقات الشدائد والهموم او الفقر والسرور ولا يخفون عن بعضهم سراً او يسأمون الحياة »

وما قبولك الزواج بأمرأة الا لتعايش معها في السعادة او الشقاء في الغنى او الفقر في الصحة او المرض ولتحبها وتعزها حتى يفرق بينكما الموت » قال استانلى «ان الزواج السعيد مبدأ جديد للحياة والسعادة وجليل الاعمال وهو الفرصة الوحيدة التى ننسى بها كل ماضينا مع هفواته وجنونه ثم نعيد السير ملؤنا الشجاعة والقوة وأمل حسن المستقبل ونرى من منزلنا مثال السعادة الحقيقية الدائمة لان كلا من الزوج والزوجة والأب والأم والاخوة والاخوات والاقارب والاولاد يساعد ويعين بما في قدرته

مما لا ننتظره من الغير حيث يعلم كل منهم اخلاق ذويه أكثر من معرفته اخلاق الغير ويسعى فى طريق اسعادهم وإعلاء شأنهم لأنه من دمهم ومن لحمهم وسعادتهم هي سعادته وفخرهم فخر له كذلك تؤلمه آلامهم ويضعفه ضعفهم وتحط من قدره عيوبهم وبذلك يهتدى الكل الى معرفة الواجبات فيرتقوا أوج السعادة »

والاولاد اخيراً منشأ مسؤلية عظيمة فى حين انهم منحة من الله وزينة فى الحياة ومنبع لعظيم المسرات ويعتذر بعض الآباء عن اهمالهم شؤن اولادهم بقولهم « ان الله اعطاهم فماً وسيعطيهم ما يأكلون » واجاب عن ذلك ارنولد بقوله « لاعذر فى ان يهمل الانسان ابناءه من الطعام او من التربية » وحقاً فان كل صغير يتأكد عنده تأثير الاخلاص الحسن يكون اكثر استعداداً لمقاومة صعوبات الحياة من غيره .

ولا يشعر بلذة العيش مع اولاده الا من يحبهم من الآباء لان ماتبديه هذه الاطفال فى الصغر من الفهاهة والغضب وبعض النقائص وكثير الطلبات أسباب سرور وتسلية لمن يسر منهم ويحب الائتناس بهم ومن لا يحب زوجته واولاده يكن كمن يطعم حيواناً مفترساً يجلب على نفسه المصائب ولا يرتاح باله ولا يبلغ السعادة ابداً . فان كل ما أوجبه الله تعالى من حب الزوجة ليس الا منبعاً لسرورنا وسبيلا لسعادتنا

١٣

فى الاجتهاد

لا تكن مسرفاً لا سيما فى الزمن فان اليوم لا يأتى غير مرة واحدة واذا مضى لا يعود والوقت من اسمى مواهب الخالق التى لا يمكن استعادتها متى فاتت فلا تتصرف فيه بما يؤسفك على فواته او يجعلك تندم على باطل استعماله اذ لا فكرة أشد ألماً من قول (فات الوقت) او (كان هذا يمكن ان يكون) والوقت أمانة عندنا نسأل عن التصرف فيها فلا تضع منه كثيراً: قال دريدن «كما انه يجب التقليل من النوم ومن الأكل يجب التوفير فى الوقت» وقد أعزى نيلسون سبب طائل ثروته الى مجيئه فى المحل المنتظر فيه قبل الميعاد المضروب بربع ساعة وقال اللورد ميلبورن «كل ما يجب قوله للأطفال هو هذه الكلمات: انما حياتكم منوطة بكم فبحسب ما تبذلوه من الجهد والاجتهاد تموتون جوعا او تنجحون فى هذه الحياة» ولكن الاجتهاد ليس بالسبب المهم للنجاح فى الحياة فقط بل هو ايضاً العامل القوى فى تحسين الاخلاق وقال تيلور «لا تكسل ابداً وشبّع العقل بنافع ما يشغله لان الفساد يسرى فى النفس التى دأبها الخمول ويشغل الجسم غير المشغول ومن حسنت صحته وجنح الى الكسل وتبع الشهوات وقع فى الشرور والشغل مأمن من وسواس الشياطين» وقال كبل «انما الدنيا والوقت موضع اختبار الرجال فيه تستعد النفوس للدار الآخرة التى جعلها الخالق جزاء العمل فى الدنيا» وكل ما نعمله لزيادة سعادة الغير او تحسين آدابه يعد

من اسمى رغبات الانسان وانفع آماله

ويروى ان احد اعاظم القدماء طاب من نقاش ماهر ان يفحر صورته فى الجليد وهذا بلا شك وقت فاقد ونحن كذلك نفقد جهلا كثير وقت فى اتباع الاهواء

وجميعنا كما قال سنيك « نشتكي من قصر الحياة مع اننا لم نعرف استعمال كثير من الزمن ونقضى جزءًا عظيما من حياتنا فى ضار الاعمال او فى البطالة ونقضى العمر تقريباً فى عمل ما لا يلزم » ومهما بذل الحكيم فينا من الحذق والمهارة فى حسن استعماله للوقت لايفوز بأكيد الفوائد .

والجد فى العمل والثبات والاستثمار منه من عوامل السعادة والنجاح قال سيسيرون « يلزم للنجاح الشجاعة ثم الشجاعة ثم الشجاعة » وكان يحسن به ان يقول : يلزم الثبات ثم الثبات ثم الثبات

ويستفيد الجسم من الشغل كما يستفيد منه العقل فان انشغال الفكر يوماً واحداً يضر الانسان اكثر من شغل اسبوع كما انه يخل نظام المرء بتمامه ولكن الشغل يوجد ذلك النظام ويحسن الصحة . وتكسب التمرينات الجسدية صحة الجسم والتمرينات العقلية راحة البال والقلب

ويجب ان يشغل الانسان عقله بما يعمله ويبذل أقصى جهده فيه والا خمدت تلك القوى العقلية . والذكاء قوة لا ينهكها الملل او كما قال البعض اجتهاد وثبات وقد سخرت (جورج اليوت) تلك السيدة الشهيرة قصصها بفكر من قال ان ما أودع فى تلك القصص إلهام اوكما قال (دويت) للطلبة فى مدينة يال هو قوة الثبات فى الاجتهاد . اوكما قال (بيفون) هو صبر جميل

ومهما كان في الاجتهاد من المشقة فان التسول اصعب منه بكثير ولذلك يلزم ان يشتغل كل انسان ليقوم باحتياجاته . وقد ذكر (كوبيت) في اجروميته الانجليزية انه تعلم قواعد اللغة لما كان جندياً ينقد اثنى عشر صلدياً في اليوم وكان يذاكر وهو جالس على فراشه ويستعمل جراب ادواته خزانة لكتبه وقطعة خشب يضعها على ركبتيه مكتبته وبلغ امنيته في سنة واحدة . وما كان عنده من الدراهم مايكفي لشراء شمعة او زيت فكان يندر وجود ما يستضيء به في الشتاء غير النار بل كانت اوقات فضائه من خدمته قليلة وشراء ما يحتاجه من حبر واقلام عليه صعباً وكان يعد ثمنها عظيما حيث لم يتوفر له من مرتبه في الاسبوع غير اربعة صلديات ومن قوله « اتذكر جيداً انى فقدت في يوم جمعة صلدياً بقي معي من مصروفي فتأثرت كثيراً وحزنت على ما فقدت ورميت بنفسي في فراشي باكياً كالطفل ازود عزمي ثباتاً على تحمل هذه الصعوبات لبلوغ أمنيتي . فهل لشاب من عذر بعدذلك اذا قصر في السعي لنوال مقصوده ؟ » وانه لخير رجل يمثل من نشط وجد فبلغ مقصده مع نقص درهمه . قال بيكون « يجهل الكثير معنى الثروة وفائدة قوة النفس التي منحت اليهم فيثقون كثيراً بالمال وقليلا بتلك القوة على ان الاستقلال والعفة يوجبان الرجل ان لا يشرب من غير مائه او يأكل الا من خبزه وأن يشتغل ليكسب ذلك الرزق ويستخلص مما يعمله خير الفوائد » وقال إيمرسون « يأمرك الخالق بالاستمرار في العمل سواء كوفئت عليه او لا فالجزاء من جنس العمل فان احسنت صنع عملك تشعر من نفسك بتلك المكافأة وجزاء

خير الاعمال القيام بها» وقد حكي السير والتر سكوت ان «ميكيل سكوت» الساحر العظيم ما امكنه التحفظ على نفسه من الروح التي تخدمه الا باستمرار تكليفها بكثير الاعمال لان الشيطان اذ طرد من القلب يحاول العودة اليه فان وجده خالياً دخله ومعه سبعة مثله شر منه

وليس الكسل براحة غير أنه يتعب اكثر من العمل وقد كانت تقول الرومانيون «تصعب الراحة من غير عمل (١) »

ولا تعجل ابداً فان الدنيا خلقت على الاناة وتقول اهالي سويسرا لمن يرشدون من الشبان في صعود الجبال « سيروا الهوينا لتصعدوا سريعاً(٢) » وحقاً فان من يتأنى في السير يصل لغايته بسرعة وفي الامثال العربية « العجلة من الشيطان والصبر مفتاح الفرج » . وكثير يتوهمون ان السرعة اقتصاد في الوقت وهذا من الخطأ الفحش . نعم يلزم النشاط في العمل ولكن اتقانه يفضل عن السرعة في نهوه غير متقن ومع هذا فان العمل الذي يتسرع فيه يتعب كثيراً ويستدعي جهداً عظيما . ولا يفسد التسرع العمل فقط بل ينهك الحياة ايضاً وقد قال جوث « اشتغل بغير ما تسرع او راحة » ولكن كلمة راحة هنا لا تحقق قوله تماماً فانه قال في موضع آخر « نجزّ عملك بلا تسرع وابعد عنك كل ما يعيق تقوية فكرك وأحسن تفكرك وانتخابك الصالح لك واتبعه واعلم ان السنين الطوال لا تصلح عملا لم يتبصر فيه » ولا تقف السير فان الحياة سريعته بل سر بشجاعة حتى تلقى الموت وابق بعدك ما يؤثر عنك ولا يمحيه الزمن

---

(١) Difficilis in otio quies (٢) immer langsam

فان الانسان فى حياته ذكرة بعد مماته

فيلزمك حينئذ بذل الجهد فى العمل وان لا تتسرع فيه او توسع عليك فيه الحرق وقم الصباح مبكراً وأرح عضلاتك وعقلك ومرنهما واستغرق فى نومك الوقت الكافى ولا تشحن معدتك باطلا واعلم ان اشغال الفكر والتأثر والضجر منه وفقد الصبر فيه لا يتم لك عملا بل يذهب بحياتك على ممر الزمن او يوقعك على الاقل فى خطر الامراض اما اذا استرحت فى حياتك ولزمت فيها السكون كان شغلك وافتكارك تمريناً للعقل مفيداً له كجيد الهواء . واحسن القيام بواجبك وكل اعمالك مهما صعبت عليك فانما كان انتصار الدوق دى ولنتون بعالى مهارته وقوة مدركته وتوفر صفات الرئاسة فيه حيث كان يهتم كثيراً بالوقوف على مقادير المؤن ومطاعم الجند وملابسه وعلف الخيل. وتأتى الفائدة فى طريق العمل فقد اكتشف كولومب أمريكا وهو يبحث عن طريق من الغرب توصّل الى الهند ويقول لنا جوث ان الملك شاؤل عثر على مملكة عند ما كان يبحث على حميرات ابيه وكما قال فرانكلن « اعقد العزم على عمل واجبك وقم بكل ما عزمت عليه »

ويتوهم البعض احياناً ان توقد الذهن يغنى عن الشغل وهذا خطأ لان اكثر الرجال عقلا لا يصل الى رغائبه بغير الجد كما ان بعضهم لم ينجحوا فى حياتهم الا باجتهادهم ومما لا جدال فيه ان بعض الناس اكثر ذكاء من غيرهم فاذا فرض وجود رجلين فى عمل واحد استويا فى العمر واختلفا فى الذكاء ولكن الذكى لم يستخدم قوته فى تحسين اعماله فان الأخير يسبقه

باتقانه ونشاطه وحقاً فان من يحب العمل وان لم يكن ذكياً يفوق الحكيم الذى لا يشتغل ومع هذا فانه لا قدرة كبير ولا مساعدة حبيب يمكنهما تعويض نقص الاجتهاد او فساد الاخلاق : مما يروى عن جروسست احد كبار رجال الحكومة ومطران لنكولن ان كان له اخ مزارع كسول اتاه يوماً يستعين به على الدخول فى عداد مشاهير الرجال فقال له : « اذا كان محراثك ايها الأخ قد كسر فانى مستعد لاصلاحه واذا كان ثورك قد مات فانى مستعد لشراء بدله لك ولكنه لا يمكننى اجابة طلبك . وانك مزارع ويلزمك الاستمرار فى حرفتك والا فانى اخشى عليك فقد هذه الصفة ايضاً » وما كان ميلتون ذا فكر وقاد فقط بل كان مجتهداً لا تعرف همته الملل ومن جميل عاداته انه كان يشتغل بقراءة كتب اعظم المؤلفين قبل الفجر فى فصل الشتاء وعند صياح الديكة فى فصل الصيف او كان يسمعها من قارئ يرفع صوته ليحضّر بذلك ذهنه ويحلى عقله ثم يشغل نفسه بما يقوى جسمه ويحسن صحته ثم بواجب الدين والمساعدة على تحرير وطنه .

ولا تمل من عملك فاليك وحدك الانشراح منه وعليك النشاط فيه وابعاد ما به من الصعوبات بفحصك اسبابها واوجه اعتباراتها . وتفكر طويلا فيما يكسبه العمل من السرور ليزداد نشاطك وحبك فيه فانك اذا قمت به مسروراً سهل عليك ولو ظهر لك فى الأول انه صعب وغير مفيد ثم اذا ثبتّ فيه فانك تستخلص منه عظيم الفوائد

ويتساءل البعض عن مقدار مايلزم للنوم من الوقت وهو سؤال عظيم

يرجع فيه الى حاجة الانسان لانه ليس من الحكمة ان يقلل منه المحتاج لكثيره والوقت الذى يمضى فى النوم لا يضيع فانه اول عامل فى تنشيط الاعصاب . ولا يمكن ساكنو المدن نوال هذا النشاط بغيره

وكان الترتيب اليومى الذى اتبعه السير ادوار كوك ان يمضى ست ساعات فى النوم ومثلها فى دراسة الحقوق واربع ساعات فى العبادة ومايبقى من اليوم فى مشاهدة الكائنات فغيره السيرجونز حيث جعل ست ساعات لدراسة الحقوق وسبعة للنوم وعشرة للاشغال الدنيوية وكل اليوم يمضى فى العمل للآخرة . ولكن سبع ساعات لا تكفى للنوم ويلزم له وقت كاف ليكون الانسان عند اليقظة فى استعداد للقيام بالاعمال . والاشتغال فى اوقات الاحزان يذهب الشجن فما سعادة الحياة كما قال شالمرس (١) (غير شيء يحب وشيء يعمل وشيء يرجى) فاشغل نفسك دائماً فانك تجد فى الشغل راحة لا يشوبها كدر وكما قال ليلى « اينما حل العاقل وجد له وطناً وحيث اقام رأى قصراً » واشتغل غير معاند للزمان ولا تجرب قهره الا اذا اضطررت لذلك فيكون بعزم ثابت وقلب قوى ولكن ذلك لا يأتى الا قليلا فعليك مسايرته لان الزمان لا يساعد من عانده : قال كنجسلى « مثل من يحتقر قانون الزمان كمن يعبث بشريعة الآداب يهيج ضده كل الكون ويجمع الزمان قواه لينيخ عليه بكلكله . وينتقم منه على اجحافه به بدون ان ينذره بوقت ذلك الانتقام اويعلمه طرقه اما من يراعى

(١) Chalmers مؤرخ انجليزي له جملة مؤلفات مفيدة منها مجموعة معاهدات انجلترا الدولية (١٧٤٢—١٨٢٥)

قوانين الزمان ويتبعها باخلاص وحزم فيأتي ذلك الزمن في عونه ويرغد عيشه حتى ان الشمس المنيرة فوق رأسه والأديم الذي يمشي فوقه يساعدانه لانه بذلك يطابق رغبات الرحيم خالق السموات والارض الذي قرر لها نواميس لا يتأتى للبشر مخالفتها »

١٤

في الاعتقادات

يعلمنا احصاء الامم ان من ١٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠ الذين يسكنون الارض ٤٠٠،٠٠٠،٠٠٠ بوديون و ٣٥٠،٠٠٠،٠٠٠ مسيحيون و ٢٠٠،٠٠٠،٠٠٠ براهمة و ١٥٠،٠٠٠،٠٠٠ مسلمون ولله در سلدن في قوله « تدعى جميع الخلائق ان دينهم واحد وما ذلك الا ليعيشوا في الراحة والسكون ولكنا لو أمعنا النظر يصعب علينا وجود ثلاثة اشخاص يتشابه دينهم من كل الوجوه » وليس هذا بغريب فاننا لانعلم شيئاً عن حياتنا الدنيوية فكيف نعرف الآخرة . وقال كانون ليدّون « سواء وُجدت آخرة او لا فان في الدنيا أسراراً جليلة لا تدخل تحت حصر اذ لو ذهبتَ للتنزه في روضة تبشر فيها اوراق الشجر اللينة الخضراء بقرب الربيع لتبين لك من كل ما يحتاط بك قدرة عجيبة لا يمكنك رؤيتها او مسها او تكييفها بل ولا حصرها او فهمها وهذه القدرة التي لاتراها ولا تسمع لها صوتاً موجودة في كل مكان »

والشك اساس الفلسفة وحيث اننا نعيش في عالم كله اسرار وليس

في استطاعتنا معرفة منشأ أصغر حيوان أو اقل نبات فكيف نرجو فهم ما لا نهاية له ؟

ولقد قال الدكتور مارتينو « اننا معترفون بانه تعالى اختص بالقضاء والسكون فانه بينما يهبط التراب الذي رفعته شواغل النهار بندى الليل وفي حال ما يتجه النظر الذي أتعبته داوعي الملل الجزئية طول يومه نحو فضاء التأمل الفسيح وحينما تمتد الارض كصحراء تحت ذلك العالم المزدان بالنجوم نرى حضرته القدسية محيطة بنا تجعلنا نرتعد من هواء المساء وتوجه انظارها الينا بأنوارها قديمة العهد الآتية من السماء »

وقال استوارميل « تبدو الينا الحياة الانسانية محاطة بغوامض الاسرار فنرى دائرة تجاربنا الضيقة كانها جزيرة صغيرة ضالة في بحر لا نهاية له يرفع احساساتنا ويساعد قوتنا الخيالية بعظمه وظلامه ومما يزيد ذلك السر غموضاً أن مجال حياتنا الدنيا ليس كجزيرة في فضاء غير متناه فقط بل في زمان غير متناه ايضا »

ولكنه لا يصح لنا اليأس لكوننا مجبورين على البقاء في دائرة الجهل وإيقاف قوتنا المفكرة فقد استكشفنا كثيراً مما لم نعرف حقيقته قبل وقد قال بعضهم « لو سألتني عن حقيقة الزمان ما تمكنت من اجابتك ولكني اعرفه تمام المعرفة مادمت لا اسأل عنه » وقد قال مارتينو « ان الذين يبحثون عن حقيقة الخالق لمعرفة ارادته سبحانه في جميع الامور والذين يظهرون انه لا يصعب عليهم ان يبينوا تركيب كل شيء وسبب كل امر او يمدحون تدبير القادر تعالى كانه عمل منهم ناشئ عن فكر اعتاد على البحث والذين يسيرون في

جميع طرق حكمته تعالى بحالة مرتاحٍ وقدمٍ متأكدٍ هم الذين يوقعونني في آلام الشك بسبب تأكيداتهم ويجبرونني على ان اقول « عِدوني بأقل مما تقولون وانا اعطيكم كل ما تطلبون » وقال اربير سپنسر « نرى من بين كل هذه الاسرار التي تزداد غموضاً كلما زاد بحثنا فيها حقيقة واضحة لابد منها وهي انه يوجد فوق الانسان قوة ازلية أبدية ينشأ عنها كل شئ »

فيجب علينا حينئذ ان نكتفي بان نشعر بهذه القوة ما دمنا عاجزين عن معرفة كنهها . وكثير من المميزات التي تفرق الناس الى مذاهب مختلفة ناشئة عن تحزب لا عن تدين . ويتهم الكثير رجال العلم بدعوى انهم لا اعتقاد عندهم ومع ذلك فانه كما قال تورو « توجد ديانة في العلم اكثر مما يوجد من العلم في الديانة » ولكن رجل العلم لا يقصد بشكه انكار الدين انما ليدل على عظيم احترامه له وكما قال تنسيون « ان رجل العلم غير ثابت في اعتقاده ولكنه طاهر النية في اعماله يجدّ ليضع لكل شئ نظاما وانه ليوجد في الشك غير المشوب بسوء النية اعتقاد اكثر مما في اغلب العبارات الدالة على تمام الايمان »

وليسمح لي بان ارجع في ذلك الى قول رجلين جديرين بان ينوبا عن باقي من يماثلهما فقد قال الاستاذ تندال « اني اذا اردت ان اعطي للسلطة الموجودة في هذا العالم شكلاً حسياً او غير حسي وجدتها تنبو دائماً عن كل مايخطر بالفكر فانه لا يمكنني ان اعبر عنها بضمير او اسميها روحاً ولست ارضى ان اسميها سبباً فسر وجودها يصعب علي » وقال الاستاذ هكسلي وهو احد رجالنا المتدربين وكان لا يميل للمنتديات الدينية « انه

يمكنني ان اقبل وجود كنيسة تكون سبب خير عام هي كنيسة لا يتبع فيها تكرار الجمل الدينية المقررة كل اسبوع بل يقصد فيها توسيع نطاق دائرة العدل والطهارة والشرف في الحياة . تكون هذه الكنيسة مكاناً لمن انهكته شواغله اليومية يجد فيه ساعة راحة يعرف فيها الحياة الطيبة الممكنة للجميع وان لم ينلها الا القليل . تكون مكاناً يمكن لمن يكد ويتعب في طلب الكسب ان يرى فيه درجة حقارة ما يطلب اذا قاسه بالسلم والاحسان ولئن وُجدت مثل هذه الكنيسة ما سعى احد في الغائها »

ويجتهد علماء الدين في ان يتكلموا بلسان يفهمه عموم الناس وليس من الانصاف ان نتقيد في فهم عباراتهم بالالفاظ فان الشاعر عند ما يتكلم عن شروق الشمس وانها سيارة لا نتهمه بجهل علم الفلك وكوننا اثبتنا ان الارض هي التي تدور لا الشمس لا يفيد ان شكسبير او تنيسون كانا من الجاحدين . ان الاختراعات العلمية تستلزم لغة خصوصية ومن حيث اننا لا يمكننا ان نصف زهرة او حجرا الا بايجاد الفاظ جديدة فلا يمكننا ايضاً ان نشرح غير المتناهي بالفاظ الانسان فلم نعجب حينئذ من ان القدماء كانوا ينسبون للارواح اموراً علمنا الآن انها تنشأ عن امراض عصبية ؟

لا ثواب في الاعتقاد بما لا يمكن شرحه او فهمه بل يستحيل ان نعتقد بشيء لم يصل الى درجة البداهة ويجب علينا ان لا نعتقد الا ما علمنا انه حق وان نوقف الحكم على ما عداه

وكثير من الناس من يظن انه مجبور على اعتقاد أمر أو عدم اعتقاده وليس من الحكمة ابداء شيء من ذلك فان الاعتقاد الحقيقي ليس بامر

اعتبارى بل هو امر واقعى ظاهر وبدون الاعمال لا وجود له فقد شبه سلدن الاعمـال والاعتقاد بالحرارة والضوء حيث قال « انه ليمكنني بواسطة الفكر ان اميز بينهما كما انى اعرف وجود الضوء والحرارة فى لهب الشمعة ومع اختـلاف العنصرين عن بعضهما فانك لو أطفأت الشمعة لذهبا معاً » وتشير التوراة الى ذلك فان هابيل لم يقـدم قربانه الا بالاعتقاد ونوح لم يصنع الفلك الا به وبه فارق ابراهيم اوطانه فـكل هؤلاء كان عنـدهم اعتقاد يجيز لهم ماصنعوه فهم يمدحون على اعتقادهم بوجوب اداء تلك الاعمال مع صعوبتها . ومن واجباتنا غير السهلة ايضاً ان نرجئ الحكم فى اى امر متى وجدناه غير مسند الى دليل بديهى . وتوجد احوال يعتبر الشك فيها من الواجب بل يعدّ من الفضائل وقد قال تنيسون « ان ما نسلكه من الطرق قد ننجح فيه لدرجة نقف عندها وما هى الا بعض اشعة من انوار الحقيقة ولكن الحق سبحانه فوق ذلك كله » وبعد قليل ينكشف الغطاء عن الحقيقة فيجب ان نرضى الآن بجهل كثير من المسائل . وقد قال ريسكان « تتوقف سعادتنا الانسانية على الاكتفاء بمعرفة ما يمكننا ادراكه ولو اختص بنا كثيراً »

وينشأ سرورنا فى الحياة عن ان نعيش تحت سحاب غير شفاف ونرضى بان نرى تقطعه فى السماء ونكتفى اذا امكننا بان نرى من خلفه الحقيقة الثابتة ونعقل ان وراء هذه الظلمة المحيطة بنا جمالا وشرفاً ونشكر الله على وجود هذا الغطاء الذى يمنع عنا ذلك الضوء الشديد الذى ربما كان يحرقنا والنور الذى ربما كان يتعبنا »

١٥

في الامل

سمعت كثيراً من الناس يتعجبون من اعتبار الامل فضيلة كالاعتقاد والاحسان فانه يمكننا ان نفهم ونقبل كون الاعتقاد فضيلة وفضل الاحسان ظاهر للعيان ولكنه كيف يقال ذلك في الأمل ؟ لا بد ان نعتبر الامل فضيلة اذ اليأس وهو نقيضه مذموم . وقوة النفس والثبات يدلان على وجود الامل كما ان قوة النفس تدل ايضاً على الشجاعة اكثر من اى عمل آخر مهما شرفت درجته حتى ان كثيراً من النساء الصادقات الود ساء حظهنَّ فمتنَ شهيدات

فلا تكثر اهتمامك بالامور زيادة عن اللازم فما من احد يغلب الا اذا فشل ولقد قال سيدني سميت بفطنته التي اشتهر بها « يجب للنجاح في هذه الدنيا ان لا نقف امام تيار الحوادث خائفين متخيلين الخطر بل يجب ان نرمي بانفسنا فيه بجراءة لنعبره باى طريق كان »

ومن العجيب ان لا يخشى الناس الاخطار الحقيقية الا نادراً ويخشون في الغالب الوهمي منها فهم يخشون مثلا من ان يسخر بهم !

وقد قال شكسبير « يموت الجبان مراراً قبل وفاته والشجاع لا يذوق مرارة الموت الا مرة واحدة » ولما عُلّق دن كشوت من يده بشباك الاصطبل ظن نفسه على شفير هاوية هائلة ولكنه لما قطع الحبل رأى انه لم يكن بينه وبين الارض الا بعض قراريط . وكم من جيوش غلبت نهاراً

وهربت ليلا لفزع بلا سبب بل كثيراً ما يطرأ ذلك الخوف والفزع نهاراً بغير ما حقيقة

ان من يشكو حالته يجب عليه ان يسأل نفسه عمن يحب ان يبادله فانه لا يمكنه ان يرجو لنفسه نوال صحة شخص وغنى آخر وسعادة ثالث الداخلية فاذا كان غير راض بحياته فليغير الكل او يبق الكل

ولقد كتب كولريدج لما توالت عليه المصائب الى السير همفري دافي: « انه مع كل هذه التغيرات والمذلات والمخاوف لم يزل شعوري بالخالق باقياً مما يقوى اعتقادى فى ان كل ما اتألم منه انما هو خير لى »

لا تيأس ابداً فكل شيء يعوض الا اليأس ويا لشقاء من دخل قلبه الجبن وقد قال جوث « اذا انعدمت الشجاعة انعدم كل شيء وعدم الجبان خير من وجوده » وقال كمبل «من رضي بحظه فاز به » وقال كوبر « دع الاقوال المقرونة باليأس فان اظلم يوم اذا صبرت فيه وعشت لغده يكون قد مضى »

الخطأ جائز على كل حى وقد اصاب من قال « من لا يريد ان يخطأ ابداً لا يعمل شيئاً » ولكنه يجب ان لا نقع مرتين فى الخطأ بعينه بل يجب ان نعتبر خطأنا درساً لنا حيث يكون كسلم به نصل الى حياة ارقى . وكان جوزف هوم يقول « انى لأفضل ان اكون دائماً منشرح الصدر على ان يكون ايرادى ٢٥٠٠٠٠ فرنك »

يلزم مراعاة الظروف فى كل عمل كما انهُ من الحكمة ان ننظر الى الماضى والى المستقبل فى كل عمل لهُ ارتباط بمعيشتنا فكثير

من المصائب لم تأت الامن كوننا اهملنا المستقبل لاشتغالنا بالحالة الحاضرة واضعنا سعادة سنين مستقبلة للذة لحظة صغيرة . نعم « ان (خذ) خير من (ستأخذ) مرتين » ولكننا لا نعلم ابداً ما يأتى به المستقبل واسعد الناس كما قال روسكان « من كان سروره فى ماضيه وأمله فى السماء »

اننا لا نخطىء كثيراً اذا تفكرنا دائما فى المستقبل لانه ليس على الانسان الا ان يترك الفانى والهالك الذى لا يمكن للحياة الحقيقية ان تشتغل به فيأتيه ما هو دائم بجميع خيراته ويحل فى نفسه

يجب على الانسان قبل كل شيء ان يكون ذا مروءة كما قال سكوت وان يكون عنده ارادة الفعل وقوة الجراءة لانه كما قال شكسبير « تخوننا شكوكنا وتجعلنا نعدم الخير وهو قريب منا بسلبها ايانا القوة والاقدام على المخاطر »

وليست الشجاعة بفضيلة فقط بل هى ركن لا تتحقق المروءة الا به فيجب ان يكون الرجل شجاعاً كما ان تكون المرأة ذات لطف ولكنه من البديهى ان يكون الرجل لطيفاً مع شجاعته ايضاً وان تكون المرأة ذات شجاعة مع لطفها . وليس التهور من الشجاعة فى شيء فان الشجاعة ليست الاستهزاء بالخطر بل هى مقاومته بعزم وليست ايضاً ان نعرض انفسنا للاخطار بلا ضرورة وانما هو الجبن الذى يزيد الخطر عند وجوده اما ملاقاة الاخطار بسكون وعزم فهى احسن طريق للخلاص منها

والهرب امام العدو أقرب طريق للهلاك فان آشيل عند ولادته غمر كل جسمه فى النهر المقدس عند القدماء ما عدا كعبه فاصيب فيه

من خلف . وعدم وضوح الامور يجعلها مخيفة ثم متى رأينا مقدار حقيقة الخطأ واعتادت عليه عيوننا ذهب جزءٌ عظيم من خوفنا فلتكن دائماً ذا سكون وشجاعة ولا ترج من الاشياء كثيرها فقد قال جوث « سر الحياة الحقيقي تقليل الأمل وحسن التمتع بما لدينا » فلا تكن طويل الأمل وكن صبوراً فان من صبر ظفر ولقد قال بعضهم فاصاب « ان اشد الخيالات حزناً هي التي نوجدها لانفسنا ولا بد ان نرى في كل حال احزاناً ولكنه يجب ان نتشجع على تحملها»

وقد قال رشتر « تذكر في اوقات حزنك الشديد ساعات سعادتك ولتعلم ايضاً ان تحمل الآلام امر عظيم ويعزينا فيه ما نعلمه من ان المقدر لا بد ان يكون وان الزمان والفرصة سريعا الفوات وان الصيف يأتي بعد الشتاء والنهار بعد الليل والسكون العظيم بعد تلاطم الامواج وان الوقت يخفف كثيراً من احزاننا وان الحزن وان دام ليلة فان الصباح يبدله بعظيم السرور»

وقال لنج فللو « لا تضطرب ايها القلب الحزين ولا تتوجع فان الشمس منيرة وراء تلك السحب وحظك كحظ غيرك ولا بد لكل حياة من ساعات اكدار وايام احزان »

واذا حل بك امر توهمت انه مصيبة داهمتك فلتتحقق منه قبل اعتقاده لان الظواهر خداعة في اغلب الاحيان ولسنا عائشين في زمن يجوز لنا فيه ان نتأثر من صغير الحوادث فاننا لا نعرف واجباتنا قبل التجاريب . والحزن وسوء الحظ متلازمان ولكن نلسون عرف ان ينتفع

بفقد عينه يوم ان التفت الى جهة رجعة الانكسار التي لم يكن مريدا لرؤيتها . وقال السير جرنت «من الناس من لا نود ان نعيش عيشهم ولكنا نود ان نموت موتهم» وقد خلدت آلة القتل ذكر رجال مثل ما خلد كرسى المملكة وما تألمنا الا لخطأ منا او لرؤية خير غيرنا وقال شكسبير « يسعى العاقل فى اصلاح ما فسد ولا يضيع وقته فى البكاء »

وكما يجب التمتع بجميع خيرات الحياة يجب ان لا نعتبر احزاننا وآلامنا كمضار جسمانية فانه لا يمكن احداً ان يسند تقدمه لنجاحه المستمر ولو فرضنا ان هذا النجاح لم يضر باخلاقه فلا بد ان يضعفها على الاقل لان تحمل المصاعب ومقاومتها والتغلب عليها يطهر الاخلاق ويزيدها قوة وقد قال چيكى « امامنا الحى الباقى ويلزمنا التشجع على التقرب منه تعالى» واننا مهما وجدنا سروراً فى لطف الهواء وشمس الصيف يجب ان لا ننسى ان للطبيعة جمالا وعظمة من ثلج الشتاء وزوابعه ايضاً

ان المصائب كريح شديدة بيد انها تقوى الجسم ولا بد منها لتقويم الاخلاق ايضاً وقد قال إپيكتت «ماذا يكون هرقل الشجاع لو لم يخلق له الاسد والثعبان وكثير من الرجال الجبابرة الذين اهلكهم واراح الارض منهم ؟ ماذا كان يصنع لو لم يجد شيئاً من ذلك ؟ من البديهى انه كان يلتف فى ردائه وينام . ولو عاش فى الرفاهية والراحة ما صار شجاعاً وفيم كان حينئذ يستعمل قوته وصبره وشجاعته لو لم تتوفر له هذه الفرص ؟ » وتأسف ابلودور على سقراط لما حكم عليه ظلماً وعدواناً فقال له سقراط « أتحب ان يحكم علىّ وانا مجرم ؟ » وقد قال بطرس الحواري « ان تحمل

آلام الناشم هو الذي يرضى الله فاذا كان يتعبك فعل الخير وصبرت على ألمه فقد أرضيت الخالق سبحانه وتعالى »

١٦

في الاحسان

لا ينبغي ان نقتصر في معاملة الناس على ما نريد ان يعاملونا به بل يجب ان يكون لنا عليهم حسنات اذا اردنا ان يحسنوا الينا فان أظهرت لهم عدم اهتمامك بهم فكيف تنتظر منهم القيام بغير ما فعلت ؟ ان ما يكون اساسه الاحسان لثابت المآل سهل النوال

ومن الناس من يتوهم في نفسه قوة تذليل الصعاب كأنيبال الذى اخترق جبال الألب برشها بالخلّ . ومنهم من يقدر على الاحسان ويهمل فيه مع انه من دلائل الخير والاخلاص التى تجعل الحياة سعيدة

واذا اصبنا في الشكوي من الآخرين فالحق الذى عليهم لنا هو على العموم اقلّ جسامة مما توهمناه وكل تململ يجسم الامر . ولا ضرر على الانسان اعظم من حبه للانتقام ومن يريد أذى الناس انما يزيد نفسه ضراً فان النحلة التى تلدغ بحرارة تموت ولا يشم النسر غير الجيفة وفي السلحفات من يعض قبل تمام خلقته وبعد موته كذلك حال من يقضي حياته بحثاً على عيوب الخلق وتشهيرها . تقضي الحكمة ان يمدح الانسان غيره او يسكت عنه لا ان يندد به والانتقاد القبيح لا تأثير له بل مهما كان وجه الانتقاد صحيحاً فانه لا يكون كل الحقيقة . فتعود نظر محاسن الرجال واترك مساويهم

اذا اردت ان تقرب حقيقتهم منك

وكن صبوراً فانما تبكي الاطفال في الغالب من الآلام وليست الرجال في هذا الاعتبار وفي كثير غيره الا اطفالا اشتد جسمها . وكثيراً ما تفضل شكوى من علمنا احساساتهم وتوثقنا من مرض قلوبهم عن التأثر منهم والحقد عليهم

فاذا رأينا انساناً يتألم تتأثر عواطفنا ولا نمنع عنه شيئاً ونقوم له بكل ما يخفف ألمه ويبعد عنه الملل والنصب فلم نقتصر على اظهار هذه العواطف في مثل هذه المواقف ؟ ألا يجدر بنا ان نكون على الدوام ذوي شفقة وحنان ؟

ولا يمكننا ابداً معرفة متاعب الغير ولا احزانه وهمومه وآلامه المستترة فاذا كان لك حق الشكوى من أحد تساهل معه

وأحسن ظنك بالناس « ولا تذكر من مات الا بخير » ولا تقتصر في ذلك على الاموات لانه لا ينقل عنا الى الغير سيئ السير او ينتقد علينا شديد الانتقاد بسبب كلمة ودية او عمل خير بسيط . من الواجب ايضاً ان نتكلم عن الاحياء باحسان كما نتكلم عن الاموات . ولا تتسرع في الانكار وقلل منه ما امكنك . ولا تحكم بامر على غيرك فانه لا يمكنك ان تعرف مايكنه فكره وقلبه لان مايظهر لعينيك من نقص ربما كان عرض له في امر غلب فيه ولو كنت انت لغُلبت فيه

انه يوجد دائماً اوقات لابد لنا ان نظهر عدم رضانا ولكنه على العموم اذا لم يمكنك ان تقول كلمة بمحبة فلا تقل شيئاً وروى عن سيدني سميث انه لما بلغه عن صاحب له انه اغتابه ارسل اليه يقول « اني اجيز لك ان

تضربني برجلك فى حال غيابى» ولكنا على العموم نحب ان يقول الناس الحق امامنا وان لا يقولوا عنا شيئاً فى حين لا يمكننا ان ندافع عن انفسنا فيه وربما ضحك الناس من سماع سيء الكلام الا انهم يعرفون انك تقول عنهم مثل ما تقول عن غيرهم فلا يأمنون اليك بعد

اذن يجب ان ترأف بحال اخيك وان حاد عن الطريق السوى فأحسن ارشاده لان الانسان من طبعه قابل للتيه والزم السكوت امام ميزان الرجال فاننا لا يمكننا ان نقيمها بالقسط وربما امكننا ان نزن ما مضى ولكننا لا نعرف ابداً ما لم يحصل . وليسمح لى ايضاً ان ادافع عن الحيوانات فقد قال سنيك بحق « انا بجميع الشبائك والمصائد وكلاب الصيد والبنادق فى حرب دائمة مع جميع المخلوقات الحية » نعم انه لا يمكننا ان نعيش بدون الاستعانة بباقي المخلوقات الحية ولكنه يجب ان لا نؤذيها شديداً لاحتياجنا اليها وان لا نشوب لذتنا او كبرنا بألم تلك المخلوقات الحساسة . واذا كان قلبك طاهراً رأيت كل مخلوق كمرآة للحياة وكتاب فيه المذاهب المقدسة . واننا لا نعتقد الآن ان الحيوانات لها نفوس ومع ذلك فان كثيراً من الناس من بودا لكنجسلى اعتقدوا ذلك . وفى الطيور خصوصاً سر سماوي فان فرنسوا دسيز لتحققه من ان له نفساً كان يعتقد انه من الممكن على الاقل ان تكون للطيور نفس ايضاً حالّه كنفسه فى جسم هالك ولم يكن ليرى نقصاً فى اشتراك الانسان مع مثل هذه الحيوانات اللطيفة التى تسبح الله فى الغابات كما تسبحه الملائكة فى السماء

ومع كل ذلك فيجب ان نعامل الحيوانات برفق وشفقة لان ايذاء

الحيوانات بلا ضرورة يعد جريمة عظيمة وقد أكد وردسورث ان احسن جزء في الحياة هو الذي يتكون من نتائج الشفقة والخير الصغيرة التي لا تذكر وتنسى . وقال كولريدج « من يحسن العبادة يحب كل المخلوقات كبيرها وصغيرها لان الله الذي يحبنا خلقها جميعاً ويحبها ايضاً »

وانه لا يوجد في جميع اقوال شكسپير أجمل من قوله « من خواص الرحمة ان لا تكون جبرية فهي تأتي كالغيث من السماء وتوجد الخير لمن اتى بها ولمن وجهت اليه وهي اليق بالقوي فهي داعي الاحترام للملك الذي يجلس في دست مملكته وفي يده الصولجان الدال على القوة ولئن أوجب الصولجان الخوف من الملوك فان الرحمة فوق قوته فهي وصف الالوهية والقوة التي تقرب من الله وهي العدالة المقرونة بالرحمة »

ولقد نعتبر كثيراً ان معنى الاحسان الصدقة فانه قيل « يجب اكرام الاغراب والفقراء لان الصدقة مهما قلت فهي من الاحسان وان لم تكن من عالي درجاته واذا منحت لمن لم يستحقها أضرت به » وللاخلاص والمحبة أهمية غير ذلك فقد قال پوب « هبني اللهم ان اشارك الغير في آلامه وان اخفي مساويه التي تبدو لعيني واغفر ذنبي بما تهبه لي من الرأفة بالغير »

وانسَ الاساءة وتذكر الاحسان فقد قال شكسبير « ان كفران النعمة آلم من نهشة ثعبان » وقال سنيك « لا يستحق الكثير منا رؤية ضوء النهار ومع ذلك فان الشمس تشرق علينا كل يوم » ومتى قربت منك الوفاة وحشرت في البعث امام خالقك ليحاسبك على اعمالك فهل يفزعك شيء

اكثر من كونك لم تكن رحيما او محسناً او مسامحاً لمن أسأت اليه اكثر من أن تكون عارياً عما ينجيك من هول هذه الساعة

١٧

في العزيمة

يلزم للنجاح فى الحياة عزيمة ثابتة وترتيب حسن اكثر من مهارة فائقة ولست اريد بذلك ان العزيمة توصل ضرورة للنجاح ولكن هذا لاينقص من أهميتها فكما انه يجب عمل الخير وعدم الافتخار به كذلك يلزم العزم فى اتباع سبيل الصالحين الذين فازوا بالنجاح والسعادة . وتقدر الحياة بقيمتها الأدبية فاذا عزمت بثبات على دفع شكوكك وأملى عليك ضميرك فروض واجبك تتهيأ لك أسباب السعادة التى يرجوها كل من عدمها . اما اذا اهملت شيئا مما تقدم فانك تنقص من قدر تلك السعادة

ويتميز العاقل بقوة عزمه فانه كما قال وردسورث «لايشغل الحكيم نفسه بالاوهام التى لا تليق بالانسان ويتبع سير واجبه بتمام ثقة واكيد عزم ويقاوم الاخطار التى تحول بينه وبين ذلك الواجب ويتغلب عليها بحسن اعتقاده فى الله »

فيلزم اذن لتمام النجاح فى الحياة شىء واحد : أمّا المال فلا يهم كثيراً . وليست المهارة والشهرة والحرية والنفوذ بضرورية ايضاً . ولاتكفى الصحة وحدها ولكن الضرورى اللازم فى كل الامور هو عزيمة ثابتة وارادة حية

وتتبع العزيمةُ الارادة فانه ولو خرج عن قدرتنا ان نكون جميعاً شعراء او رجال علم وفنون الا انه يوجد كثير من الفضائل التي لا يمكننا ادّعاء نقص الكفاءة لاكتسابها كالقيام بالواجب والاخلاص والشهامة والاجتهاد والرضا بالقضاء والاقتناع بالرزق والكرم والحرية ومقت الرفاهية والزينة والفخفخة وواهي الامور

ألم يؤن للانسان ان يفتكر في كثير الفضائل التي يمكنه التحلي بها ؟ اني أسائل من يقصر في واجبه واناقشه الاسباب . أهي غباوة فطرية تدفعه الى الملل واظهار الكسل وسلوك طريق المداهنة وترك جسمه التعيس يتخبط في مهلكات الاهواء والجموح الى العجب والامل في الوهميات ؟ لا وربي انه لفي امكانه تحرير نفسه من وصمة كل هذه الرذائل !

أخلقَ ضعيف العقل ؟ انه لجدير بمثل هذا ان يهتم كثيراً بسد هذا النقص الذي لايحسن السكوت عليه وحريٌّ به ان يفقه الى ما اودعه فرانكلن الشهير في قوله « اني لما اردت اكتساب الفضائل فكرت في وجوب عدم ارهاق نفسي على نوالها معاً وعملت على الحصول عليها واحدة بعد اخرى وكلما تثبت في احداها تخطيتها الى الثانية وهكذا حتى تثبت بعون منه سبحانه في الثلاث عشرة فضيلة التي هي الاعتدال والسكوت والترتيب والثبات والورع والمواظبة والاخلاص والعدل والمساواة والنظافة وراحة البال والعفة والتواضع »

نعم انه يصعب التصديق بصحة اتباعه هذا الطريق الا ان التثبت في فضيلة واحدة يستتبع اكتساب غيرها من الفضائل .

وانا نندهش كثيراً اذا سمعنا رجلا يحسن على آخر يقول له : توجه لحانة خمر واصرف فيها ما أعطيته لك او خذه وقامر به او اشتر به ما لا ينفعك . فلماذا يعمل هو نفسه مايرى القول به ممقوتاً !

ولتمش ونظرك دائماً مرتفعاً فان من يسير وعيناه منخفضتين لا يرى الا ما في الارض ومن لم ينظر للسماء ولا يعتبر بما فيها يعرض نفسه لكثير آلام

واذا رجعنا الى حقيقة الاشياء نمقت كثير المطامع في الحصول على الالقاب والرتب وما بلغ (شكسبير وميلتون ونيوتون وداروين) سامى الشرف بما تمنح به الحكومات من هذه الالقاب والرتب . ومن اعظم مساوى تلك المطامع المنتشرة ان لا يقنع الانسان ابداً . مثل ذلك كما اذا صعدنا جبلا شاهقاً فاننا كلما وصلنا الى مرتفع نرى أرقى منه ولم يبلغ اسكندر او نابليون أمانيهما بل أبعدهما الطمع عن التمتع بالراحة وشكر الحظ وكما قال بيكون « من يتعود على النجاح وفشل مرة يعدم سرور النفس ويتبدل كيانه » ويزيد الامر اشكالاً قول الشاعر سكوت « ان قضاء ساعة اضطراب في حياة عالية يعادل حياة قرن بغير شهرة » ولكن الطمع كنار القبس غش لامع وفي تاريخ مارى دى ميديسيس عبرة فانها كانت ملكة فرنسا ثم الملكة الوصية عليها فأم ملكها وملكة اسبانيا وملكة انجلترا والدوقة دى ساڤوا رفضت كل اولادها قبولها في ممالكهم واهملوها حتى ماتت بمدينة كولونيا في أشد الفاقة ينقصها الخبز بعد ان صبرت عشر سنوات على مرّ المظالم !

وما كل التيجان الا من الشوك وتزداد المسؤلية كلما كان حاملها شريف العواطف طاهر الذمة اذ انه يستحيل علينا عدم التأثر عندما تسبب هفوة حكم صغيرة مصائب آلاف من العالم .

ولم يخلق الانسان ليقف فى طريق الحياة بل ليتقدم فيه ولذلك ترى الكثير منا لا يمكنه البقاء فيما هو فيه فيلزمنا التقدم او الموت ويجب ان نعتنى فى انتخاب ما نجعله مقصدنا فى الحياة وفى معرفة ما يؤدى اليه من السبل وما النجاح الذى يبلغ بخسيس الوسائط الا تأخراً واحتقاراً

وكيف يمكننا التوفيق بين حاجتى الطبيعة المتضادتين ؟

يجب ان يكون طمعنا فى تهذيب النفس وتكميلها والتوصل الى الحقائق والقدرة على معرفتها . ولا نجاح فوق هذا يزيدنا ثقة فى كل لحظة ويمنع عنا كثير اخطار وآلام . وجدير بالانسان ان يطمع فى تأدية واجبه لا فى غيره من الدنايا فما كان الدوق ولنتون يستعمل فى رسائله غير كلمة (القيام بالواجب) تعبيراً عن الفاظ الشرف والمجد والفخار . ولا يهمك بعد مائة سنة ان تكون غنياً او فقيراً شريف الاصل او وضيعهُ انما الذى يهمك هو ان تكون قد احسنت عملك او اسأت فيه : قال ريسكان « كل ما نفتكره ونعلمهُ ونثق بهِ لا يهمنا كثيراً فى نهاية العمر وكل ما يهم هو ما نعملهُ »

وكن حرًّا محباً للحقيقة فقد قال چان پول رشتر « اول خطيئة اقترفت فى الدنيا كانت الكذب والشيطان هو فاعلها » وفى الامثال «لا يأمر الله بالافراط ويحب الاعتدال» والصدق كما قال شوسر « اجمل

متاع » وقال غيره « يحب الصدق ويمقت الكذب كما تمقت السرقة » والكذب كما قال پليتارك « ينبئ عن عدم الخوف من الله والخوف من الخلق » ويخجل الكذاب من عدم صدقه ولكنهُ لا يجب ان يخجل الصادق من قوله الحق

ويوجد في الحياة كثير فضائل تكسب الانسان ثقة الناس بهِ ولكنهُ توجد واحدة منها لا يكون الانسان بدونها انساناً ويفقد طيب العيش ولذة العمل وما هي غير الصدق . فاننا ما سمينا اعاظم الرجال واكبرهم واتقاهم بهذه الاسماء الا لكونهم كانوا صادقين مخلصين لانفسهم فبلغوا هذا الفخار

قال وردسورث « امران مع ما بينهما من عدم التشابه لا يمكن فصلهما عن بعضهما هما شهامة الطاعة وشهامة الاستقلال وشهامة الثقة وكمال الاعتياد على ان لا يركن الانسان الا لنفسه » فتعوَّد الطاعة لتعرف كيف تأمر والجندي غير الماهر لا يكون قائداً عظيماً « ولا تعجب بنجاحك فقد قيل في الامثال « الكبر مطية الهلاك وتعالي النفس موردة الدمار » واننا نجمع في فكرنا بين الاهواء والجد وبين الصبر والبطالة وهذا خطأ لان الصبر يستدعي قوة في النفس والاهواء دليل على الضعف ووهن قوة حكم النفس . واخضع النفس مهما كانت وظيفتك واعدل وجامل فقد حكي لنا ان احد ملوك الشرق امر مرة بقتل رجل بريء فقال لهُ « اقلل من غضبك ايها الملك فاني لا اذوق غير عذاب لحظة ولكن خطيئتك تبقى الى يوم النشور » وفي الحقيقة ان السلطة عظيمة المسؤلية فلا تشغل نفسك كثيراً بما ترجو عمله وافتكر طويلاً في اتمام واجبك فان هذا

السبيل هو الاقوم لنوال السعادة واذا تحيرت بين واجبين فقم باقربهما ولا تكن ممن يهملون امر عائلاتهم ويشتغلون باصلاح حال المتوحشين فانه من الواجب تفضيل برّ الاهل ومواساتهم على غيره .

وكل ما في هذه الدنيا وجد للخير ويسهل تحقيق ذلك فانا نتكلم جميعاً عن العقاب الذي توجبهُ الذنوب مع ان هذا العقاب انما يأتي من انفسنا وبنيت مسرّات الدنيا على الفضائل وآلامها على الشرّ ومن يذنب ظناً منهُ بعد العقاب عنهُ فقد خالف نواميس الطبيعة وليس معنى الاعتراف بالذنوب اننا لا نعاقب عليها فهذا يستحيل ويعدّ الاعتقاد فيه من عظيم المصائب ولا يوجد في الحقيقة مصيبة ادهى من التقدم مع عمل السيئات فانك ان عملت شرًّا تسمم ذكراه كل مستقبلك وربما سامحك من اسأته ولكنه بهذا يزيد في جسمك نار الغضى لان التكرم على من أساء يجعل المسيء في درك الهوان الاسفل . ويعلمنا السير حقيقة الحياة وتتعلق به سعادتنا وثروتنا ولا تهمنا حوادث الغير اكثر من اعمالنا فاجعل من نفسك كل يوم رقيباً عليك فان العادة نصف الحكمة وتأتي العادة بالعمل والعزيمة بالعادة والحظ بالعزيمة وحيث انه في كل يوم يعظم عندنا حب الخير او الشر فيلزمنا ان نراجع النفس كل مساء اين وصلت بنا . وقد قسم ايمرسون الناس الى قسمين قسم يعمل الخير وآخر يعمل الشر فاذا كنت من القسم الاخير تبدلت اصدقاؤك لك أعداء وخواطرك آلاماً وحياتك حزناً ودنياك سجناً وموتك هولاً

اما اذا اسعدت انساناً بكلمة عزاء او لفظ قبول فانك تكون قد

عملت في ساعة سعيدة عمل ملك كريم

ويحسن بالانسان ان يعتكف كل يوم ساعة او نصف ساعة يراجع فيها نفسه ولا اعتذارهنا بضيق الوقت فانالوقت لاينقص خير . واجعل همك عمل الخير فانك لذلك لا تعمل شرًّا ومن يتعظ بالموت ويفتكر في اليوم الآخر وفي الجنة والجحيم لا يحد عن سواء السبيل . ولا تفقد كثيراً من الوقت وتذكر خالقك طول ايام شبيبتك فان من يريد ان يموت كما يجب ينبغي له ان يعيش كما يجب . ولا صعوبة في الموت على التقى فقد ترجم تيرلوال وهو في مرضه الاخير الجملة الآتية الى سبع لغات « النوم اخو الموت فيجب عند نومك إيداع النفس الى عناية من يوقظك من موت الرقاد ورقدة الموت » ويقول لنا سيسيرون ان سوقراط عند محاكمته لم يفه بكلمةٍ لا كرجل حكم عليه بالموت بل كمن تأكد من دخوله النعيم . ومن يُرد نعيم الآخرة يسلك في حياته طريق الصالحين فاجعل نصب عينيك اشرف خيال الوجود ليمكنك بهذا تنظيم احوالك ولتقول الناس عنك كما قال شكسبير عن بريتوس « كانت حياته شريفة متجملة بحميد الصفات كأن الخالق أوجده ليكون مثال الرجال » واذا كان ذلك عن امرأة فلتتبع هذه النصائح ليقال عنها كما قال ورد سورث « انها كانت امرأة كاملة وشخصاً شريفاً خلق للوعظ والمساعدة في ادارة الامور ذا عقل وقاد لا ينقصه الا إذن القادر سبحانه ليكون من الملائكة » وقد كانت آخر كلمات السير سكوت وهو على فراش الموت قوله الى لوكارت « عليك بالتقى والتمسك بالدين وعمل الخير فان هذا وحده هو الذي يخفف

عنك الآلام عند ما تكون مثلي الآن » وقال بلعام « اللهم أمتني موت الابرار واسكني دارك التي وعدتهم بها »

١٨

في راحة البال والسعادة

تجل السعادة عن أن تكون في الثروة وكثير ممن يظهر لنا انهم سعداء ينقصهم حسن الحظ وذلك لان السعادة هبة من الله سبحانه يعطيها لمن يشاء واما عيش النجاح في هذه الحياة فمملوء بالمتاعب والاوهام . ومن فقدت منهم مبادئ السعادة لا يمكنهم وجودها في جمال الكون ولا في اختلاف مناظره او مسراته اومكاسبه : قال شوبنهوير « الدنيا لبعض الناس كصحراء محزنة خالية من الفوائد وللبعض الآخر مفرحة ذات ثروة ومملوءة بالفوائد » ولا تبعد علينا السعادة اذا عرفنا طريقها انما لا يلزم طلبها باجتهاد زائد لان سرورنا العظيم كما قال دلاس[1] « يوقعنا في مهواة العذاب اذا التفتنا لنراه كما فعل أورفيه[2] » وتجنب الملاهي تتبعك المسرات ولا تشتغل بنفسك دائماً فانك لست بمفردك في هذه الدنيا وكما قال ريسكان « لا تبحث عن الملاهي وكن دائماً في استعداد لان تسر خاطرك وانه

(١) G. Dallas من مشاهير قضاة انجلترا وله كثير مؤلفات ١٧٥٨ — ١٨٣٣

(٢) Orphée من شعراء اليونان في القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ويروى انه لما ماتت زوجته توجه الى اله النار وطلب منه ردها اليه فاجابه على شرط ان لا يلتفت خلفه وهو عائد من عنده ولكنه خالف هذا الشرط فأخذها منه ثانية

لامر عظيم ان يجعل الانسان حياته سلسلة مسرات ولو لم تكن عظيمة »
ومع ذلك فان معنى (قابلية الانسان للمتناقضات[1]) انه وحده الذى وُهب السرور . ويمكننا التساؤل هنا ايضاً عما اذا كان للحيوانات فكر . لا يختلف اثنان فى انها لا تعرف الضحك الذى هو من اقوى دلائل سرور الفكر

قال شامفور[2] «اكثر الايام ضياعا يوم لم يضحك الانسان فيه» وفى الحقيقة ان من السرور العظيم سماع ضحك بهيج ينبئ عن انشراح . وذو القلب الفرح طويل الحياة ولكن ذى القلب الحزين قريب التعب .

وتحمد البشاشة فاذا غضبت يوماً لا تترك الشمس تغيب وانت متلبس به . ولا بد لحصول البغضاء من طرفين فلا تكن احدهما ولا تكن ممن يقضون حياتهم فى الشكوى فانهم لو خُلقوا فى الفردوس لأوجدوا ما يشتكون منه وكن ممن يوجدون لانفسهم سعادة فى كل آن فانهم لا يجدون حولهم الا جمالا ولطفاً وكما قال مورّيس « اى جنة تكون احسن من الدنيا اذا دفن منها الخوف الى الابد ودام الأمل واستمرت الحياة » .

ان البشاشة تزيد القوة الادبية وكما ان الشمس تفتح الازهار وتينع الاثمار كذلك تفعل البشاشة بالحواس والحرية والحياة فانها تقوى فينا مبادئ كرم الاخلاق وتنمى ما عندنا من المحامد

ومن واجباتنا نحو الغير البشاشة ايضاً ومما يروى لنا عن القدماء انهم

---

(١) Humour

(٢) Chamfort من شعراء فرنسا (١٧٤١ — ١٧٩٤)

كانوا يقولون بوجود أواني من ذهب في كل نقطة يلتقي فيها قوس قزح مع الارض ولكن من الممكن قوله الآن « ان من الناس من بشاشتهم ووقع كلامهم ووجودهم ينعش كأشعة الشمس ويصير كل مايلمسون ذهباً

ومتى عرفت الناس البشاشة سدّ سبيل المشاحنة لان القلب المسرور عيد دائم لصاحبه وللغير ايضاً وقد عالجت بشاشة (فلورنس نيجتنجل[1]) من المرضى اكثر ممن صحّوا بأدويته وماتشاطرُنا حمل الغير الا تخفيفاً من حملنا

وقد يتوهم البعض ان البشاشة دليل على عدم اكتراث الانسان مع انه لا ارتباط بين الامرين وكما قال الدكتور ارنولد «ان الانشراح والبشاشة وهما من أعظم مواهب الله للانسان يقويان الفكر ويزيدان في الاخلاص بلطف يفوق ما اذا كانا مرتبطين بصاغر او مصاعب من يكفر بنعمة الله »

ومن النـاس من ولد للشقاء وليسوا هم الفقراء وحدهم فقد اصبح الاغنياء في تعب اكثر منهم بكثير وكم صير المال حياة كثيرين لا تعرف الراحة ولا السلام

ولا يمكننا ابعاد متاعب الحياة الدنيا ولكنه في قدرتنا التغلب عليها متى اردنا ويلزمنا لذلك تزيين عقولنا بجميل التصورات وسعيد الذكرى

ويميل الجميع لان يسر النفس ولكن القليل من يعرف الطريق ولا تعرف الناس مقدار سعادة الحياة ولا تحسب لها حساباً

ولا ينبغي تجسيم دنئ المشاغل حتى تصير من التجاريب العظيمة ومن قول سيسيرون « ليست متاعب الحياة بجسيمة على من يعتقد دوام

(١) Florence Nightingale

الوجود وعظمه لان العاقل الحكيم لا يعتبر ما علمه الانسان بالكثير او ان هذه الحياة القصيرة بالشيء العظيم فهو دائماً فى احتراس يمنعه من الوقوع فى ما لا تحمد عقباه » ويتخيل لنا غالباً ان صغير الجروح التى تصيبنا مميتة وهو تخيل يضحك ومما يحكى ان رجلا أصابه جرح خفيف ظنه جسيما فاستدعى طبيباً وهذا ارسل يطلب له فى الحال لزقة فقال له المريض أظن جرحى مميتاً فاجابه الطبيب لا « ربما شفيت منه قبل حضور الرسول » وكذلك يشفينا الوقت من العيوب كما يشفينا من الجراح

قال ميل « ليس من الضرورى ان يكون العقل عقل حكيم حتى اذا فتحت له ابواب المعارف وعرف استعمال جميع قواه يجد صاحبه فوائد لا تفنى فى كل ما يحتاط به من تركيب الطبيعة ومحاسن الصناعة وعجيب تصورات الشعراء وحوادث الانسان وتاريخه وطرق عيشه فى الماضى والحاضر والمستقبل المنتظر وقد لا يهتم الانسان بكل ذلك ولو ليستخلص منه بعض فوائد لنفسه وما ذلك الا لعدم امكانه وجود ما يفيد الادب والانسانية واقتصار البحث من الاوّل على ارضاء الرغبات» وانا نعيش فى دنيا ذات ازهار واشجار وحشائش وانهار وبحيرات وبحار وجبال ونور شمس وضوء قمر فهى بهجة القلب المنشرح ورضا من يقنع ولكنه يلزم لمعرفة قدر ذلك الجمال الشعور به فاننا كثيراً ما نتكلم عن ذكاء الكلب والفيل ولكننا لا نجد لهما سروراً فى منظر اجمل مدن العالم

ومن النـاس من ينقصهم العمل ويبيتون يشكون الملل ولكنهم هم فى هذه الحالة منشأ ذلك الملل فاذا وجدنا رجلا متعلما جيد الصحة صحيح

النظر سليم الأيدي متوفرة له اوقات الفضاء ولا يرى لحياته غاية فذلك انما لان القادر سبحانه منح كل هذه الهبات لمن لا يستحقها

ولا يحقق لنا المال ولا الجاه السعادة وربما كان الاحسان وراحة البال بدون الرغبة فيهما شيئاً عظيماً ولكنهما لا ينشئآن السعادة : يحكي عن ملك الفرس انه شعر يوماً بسيء حظه فاستشار المنجمين عن احسن وسائل الحصول على السعادة فقالوا له بان يلبس قميص رجل تم له حسن الحظ فأمر بالبحث عمن توفرت فيه تلك الصفة بين حاشيته ورعيته فلم يهتدوا اليه وأخيراً وجدوا فلاحا عائداً من عمله كان حقيقة سعيد الحظ ولكن الدواء كان ويا للأسف بعيد النوال فان الفلاح ما كان عليه قميص

وكما بينت فيما سبق وقالت به صحاح العقول ان السعادة لا تشرى بالمال ولا تدرك بالجاه وان تيجان الملوك في الغالب مملوءة بالشوك ومن قول اكزنوفون(١) « يغتر الكثير بظواهر المظالم ولا يدهشني ذلك ما داموا يحكمون على السعادة والشقاء بالظواهر ايضاً . ويهيئ الظلم لجميع النواظر خيرات وهمية يظن انها غالية الثمن توجب المجد والفخار على ان الظالمين هم الذين تكمن الشقاوة في قلوبهم التي هي منشأ السعادة او الشقاء . وقد حققت لي التجاريب ما للظالمين من قليل الحظ في الخيرات ووافره في اكبر المصائب »

قال ماسيون(٢) « من اين لك سوء الحظ ايها الانسان؟ أليس لكون هذه الدار ليست مقراً لك وانك ما خلقت الا للدار الباقية وان هذه الارض ليست بوطنك وان كل ما عدا الله لا يعنيك » وفي هذا

(١) في كتابه واجبات الملوك (٢) Massillon

القول ما يرضى من ساء حظه ؛ وقال بيكون « ان حصر انواع السرور ووسائل الفضائل امر يفوق قدرة البشر وكل ما يمكن قوله عن فضيلة ان فيها لذة لا تكيف وعن اسمى هناء انه يجل عن الوصف » ويدخل كل ما فى العالم تحت قوانين عادلة حميدة ويربط الكل الخير ويسعى كل فرد فى طريقه فاذا ألمت بنا المصائب فانما يكون بخطئنا او لتحقيق سعادة الغير ومن قول سيسيرون ان إبيكير[1] قسم مطامع الانسان الى ثلاثة انواع منها ما هو طبيعى وضرورى فى آن واحد ومنها ماهو طبيعى وغير ضرورى ومنها ما ليس بطبيعى ولا بضرورى : اما الضرورى منها فلا يحتاج الانسان تقريباً لشىء لالتماسه لان اسرار الطبيعة موجودة فى كل مكان واما عن النوع الثانى فمن السهل ايضاً التماسه او الاستغناء عنه اما الثالث فلا تستلزمه الحاجة ولا تضطر اليه الطبيعة » ويلزمنا لحسن التمتع بالحياة حرمان النفس من كثير واهى المسرات فان الانسان يستفيد من عصيان النفس اكثر مما اذا سلم نفسه لاهوائها حتى اننا لو أهملنا الحواس التى نتلذذ بها احياناً تسير بنا الى اخطار الحياة وتوقعنا فى حبال اهوائها كبنات الماء فى العهد القديم

ومن مصائب هذا العصر ان لا نتمتع الا بقليل من اوقات الراحة فاننا نعيش بين تقلبات الدهر المستمرة . وكثير منا نساءً ورجالاً شعر بما قاله پورتيا « قد تعب جسمى الصغير من هذا العالم العظيم » ولقد قال كنجسلى « لقد عرفت ان ما ينقص نوع الانسان هو الراحة الداخلية

(١) Epicure من فلاسفة قدماء اليونان

راحة القلب والخاطر . ينقصنا خلق شأنه السكينة والاقتدار والخضوع والرضا خلق لا يحتاج لمقوم لابتعاده عن القصور ولا لمهبط لتجرده عن الاضطراب ولا لمشاغل تلهيه لقدرته على حسن الانتفاع بمواهب الله تعالى وبالاختصار خلق معتدل ليس فى المأكل والمشرب فقط بل فى جميع الاميال والآمال والافعال منزه عن الشره والطمع الذى سقط فيه سيدنا آدم ابتغاء نوال الحياة والهداية فسلك به طريقاً محظوراً ولم يجد غير المصائب والموت . نعم عرفت كل ذلك وعرفت أيضاً ان الراحة لا توجد الا فيما قدمت »

قال ريسكان « اننا نشكو من نقصنا كثير امور كاصوات الانتخاب والحرية والالعاب والدراهم وما عرف احد منا احتياجه الى الطمأنينة على ان لها من الطرق اثنين أولهما فى تمام مقدرتنا وهو تكوين كنز افكار حسنة مفرحة فاننا نجهل مقدار عجيب القصور التى يمكننا بناؤها بحسن الافكار . قصور لا تدكدك طودها الشدائد ولا تثلم بناءها الحوادث وهذه القصور التى تشيد بغير أيد لتكون مسكناً للنفس هى تلك التصورات الجميله وسعيد التذكار وغالى الحوادث وصادق الاقوال وثمين الافكار التى لا تعرف القلق ولا يكدر صفوها الألم ولا تزعزعها الكوارث » وتزعج حياتنا صغار الامور بقدر ما تحزننا المحن ولكن الكراهية أسوأ تلك المحزنات

ولا يجب البحث عن السعادة فى غير انفسنا وقلوبنا فاذا لم يسعد حظنا فى هذه الحياة الدنيا فكيف لنا ان ننتظر ذلك فيما بعد ؟ هل القادر سبحانه وتعالى يرؤف بنا فى الآخرة زيادة عن رأفته بنا فى هذه الحياة ؟

انا لا نرجو السعادة فى الآخرة اذا عدمناها فى الدنيا !

وكما ان السعادة تزداد بلا شك بالمشاركة والتمتع والتذكار كذلك لها مصدر عظيم فى النظر فى العواقب والامل فى عودة ما كنا نحبه وفقدناه ومعرفة كثير من الحقائق التى لا تزال فى الخفاء . ولا اضيف شيئاً على هذا المصدر العظيم ولكنه لا يجب ان نحتقر بسببه خيرات هذه الحياة بل يلزمنا للعيش فى السعادة والاطمئنان ان نملأ عقولنا بعالى الافكار وقويمها

وفى النهاية كما قال سوقراط «اصلح الرجال من عمل على تكميل نفسه واكثرهم سعادة من يتحقق من سيره فى سبيل الكمال »

١٩

فى الدين

« بحذف واختصار »

اذا كان الدين من حيث كونه علماً لم يزل امراً غامضاً على اعظم العلماء فهو من حيث كونه معرفة ما يجب سهل الفهم حتى على الولد الصغير وان ما قاله لوك عن الاولاد من انه يجب ان نوجد عندهم شعوراً بحب واحترام لمن بلغ النهاية فى الكمال والطيبة يمكن تطبيقه على كثير من الناس فيجب ان نقف اولا عند هذا الحد بدون ان نزيد لهم فى الشرح خوفاً من ان يتبادر لاذهانهم عن التكلم معهم فى الارواح وعن التسرع فى تعريفهم حقيقة تلك الذات التى لا تحدّ ايجادَ افكار سخيفة او غير معقولة لديهم فيجب حينئذ انك اذا تكلمت مع الصغار عن الاله ان تقول لهم فقط : ان الله

موجد كل شيء ومدبر كل شيء ويرى كل شيء ويمنح من يحبه جميع الخيرات ومتى ادرك اولادك هذا المقدار تراهم يصلون من انفسهم في زمن قريب الى افكار ارقى في هذه الذات المالكة واذا وجدتَ بعض هذه الافكار معوجة يجب تقويمها في الحال واني ارى انه يحسن كثيراً ان يقف عموم الناس عند حد فكرة الاله كما اوضحتُ بدون ان يشغلوا النفس بالبحث كثيراً عن مزايا حقيقته التي يجب ان يعتبرها كل شخص مستحيلة الادراك فان كثيراً من الناس لم يكن عندهم ما يكفي من القوة وسلامة الفكر ليميزوا مقدماً بين ما يمكنهم معرفته وبين ما يفوق ادراكهم فيقذفون بانفسهم في مهاوي الضلالة او الكفر المحض بسبب هذا الميل الخالي عن التمييز ويشبهون الاله بانفسهم او ينكرون وجوده بالمرة لكونهم لا يمكنهم تصور حقيقته . ومما قاله جونسون « ان كل ما يجعلنا فوق قدرة حواسنا وكل ما يجعل الماضي والمستقبل البعيد اهم عندنا من الحالة الحاضرة يزيد في شرف تسميتنا بذوات المفكرة »

ويجب ان يهتم الدين بامر الجسم كما يهتم بامر الروح فانه من المهم ان يعامل كل منهما باحترام مثل الآخر . وليس الدين في الحياة اليومية الا قاعدة للسير ومحافظاً على التقدم ومعزياً في المصائب ومساعداً في الاتعاب ومأمناً ضد الاخطار ومواسياً عند الحزن وملجأ للسلم

من الجائز ان لا نعرف اصل منشئنا والى اين نسير ويتأتى ان نكون غير متثبتين في افكارنا واعتقاداتنا ولكن قلوبنا تعرف في الغالب ما يجب علينا ان نعمله .

ما يجب علينا لغيرنا انما هو جزء مما يجب علينا لله وحب الغير يدل على حبنا لله وقد نميل في بعض الاحوال الى التشكي من الغير ولكنه ما دام انه لا يمكننا ان نكون كما نود فبالاحرى لا يمكننا ان نرى الغير في جميع احواله موافقاً لرغباتنا . فاذا كان لنا حق في الشكوى يجب ان نسامح لا سبع مرات كما قال البعض بل بقدر ما نود ان يسامحنا الغير اي اضعاف ذلك سبعين مرة

وينجح خوف الالم في التأثير على العقول اكثر من تأثير الامل في السعادة فلا يجب ان نهمل العهود ولا الانذارات السماوية .

ويجب ان يوجد الدين في النفوس الامل لا الخوف والرغبة لا الرهبة كما انه يحسن بنا ان نجمع في فكرنا بين الامرين فقد قال راليْ « ان الذي يفكر كثيراً في الموت واليوم الآخر وفي الجنة والنار لا بد ان تحسن سيرته » وقد قال سنيك « لا تطلب من الله ما تحب ان تخفيه عن الناس ولا من الناس ما تحب ان تخفيه عن الله » .

علمنا بعد طبع الكتاب أن قد أنعمت جلالة ملكة انجلترا على جناب المؤلف برتبة اللوردية فنهنئه بذلك

ثمرة الحياة